من الشرق والغرب
دراسات
في
الأدب السوداني
بقلم
الدكتور جمال الدين الرمادي

من الشرق والغرب

دراسات
في الأدب السوداني

بقلم
الدكتور جمال الدين الرمادي

مقدمة

لعل أبرز المظاهر السياسية فى العصر الحديث الاتجاه الواضح البين نحو الإيمان بالقومية العربية والدعوة إلى توطيد الصلات وتدعيم الروابط بين الشعوب العربية جمعاء ، لما بينها من مقومات تاريخية وسياسية وحضارية تشترك فيها جميعاً وتكيف ماضيها ، وتشكل حاضرها ، وتحدد مستقبلها .

فالقومية العربية أصبحت ديناً تؤمن به الشعوب العربية جمعاء ، والقومية العربية أصبحت عقيدة تؤمن بها وتتطلع إليها الجماهير العربية فى شتى الأقطار والأمصار فقد قاست آلاما متشابهة ومرت بمحن مماثلة ، وكانت نهباً مستباحاً للمستعمر الغاشم ، والمستبد الظالم ، وفرض عليها سطوته وغلظته ، ونشر فيها طغيانه وعدوانه ، غير أن ليل الظلم لم يلبث أن انقشع وأشرقت شمس الحرية على الشعوب العربية ، وكانت انتفاضة الجيش العربى فى مصر عام ١٩٥٢ إيذاناً بزوال الاستعمار من الشرق العربى ، وسار الاستعمار فى طريقه إلى حتفه من هذا التاريخ . وهوت صروح الطغيان على الأرض كأوراق الخريف إذ تعبث بها يد الريح فى وجه الفضاء العريض ، وأخذت هذه القيود الحديدية ، وهذه الأصفاد الفولاذية تتحطم شيئاً فشيئاً ، وشرع الشرق العربى يلتقط أنفاسه ، ليتنفس الصعداء بعد عبء جسيم جثم على صدره ، وحمل فادح ناء به ظهره أعواماً طوالا .

لقد أصبحت القومية العربية عقيدة راسخة فى قلب الأمة العربية . والسودان الشقيق تربطنا به منذ أبعد الحقب والأزمان صلات وثيقة ووشائج متينة منها صلات الدين والعروبة ، ووشائج الدم والنسب، وروابط الجوار والألفة وأواصر الصداقة والقربى ، كما كان للنيل فضل عظيم فى تدعيم ما بين مصر والسودان من

علاقات . وتوطيد ما بينهما من صلات ، كما كان شريان الحياة ووريدها بالنسبة إلى البلدين الشقيقين والقطرين الحبيبين .

فالسودان قد جمعته بالجمهورية العربية المتحدة صلات وصلات ، والسودان عضو من أعضاء جامعة الدول العربية ، والأمم المتحدة .

وقد أظهر السودان فى كثير من المناسبات الوطنية حرصه على مصلحة الشعب العربى فى مصر ووقوفه معه إزاء الاستعمار وأعوان الاستعمار .

وكانت دعوات الحرية يرنّ صداها فى كل من البلدين الشقيقين قوياً مجلجلا يهز عنان السماء ويثل عروش الاستبداد ويزلزل صروح الرجعية ، فزادت الشعوب العربية تمسكاً بحقوقها الوطنية ، ووقفت فى ميدان الكفاح راسخة الأقدام كالجبال لا تعصف بها الأنواء ، ولا تزلزلها الأهوال .

والسودان عضو فى مؤتمر الشعوب الآسيوية الأفريقية ، وقد أسهم بنصيب موفور فى التعاون بين المجموعة الآسيوية الأفريقية التى يرجع ظهورها إلى انعقاد مؤتمر باندونج فيما بين ١٨و٢٤ إبريل عام ١٩٥٥ .

وقد أصدر هذا المؤتمر فى جلساته فى باندونج والقاهرة قرارات عدة وتوصيات شتى بشأن التعاون الثقافى ومنها إعادة العلاقات الثقافيـــة بين الدول الآسيوية والإفريقية التى كانت قد توقفت خلال القرون الماضية تحت ضغط الاستعمار الأجنبى كما أوصى بإنشاء الجامعات والمعاهد وتبادل المعلومات وإبرام المعاهدات الثقافية .

وكان السودان من الدول السباقة إلى تحقيق هذه التوصيات كما كانت الجمهورية العربية المتحدة درعاً واقية ضد الاستعمار وأعوان الاستعمار .

وفى هذا الكتاب الذى نقدمه للقارىء اليوم دراسة عن الأدب فى السودان وهى محاولة للتقريب بين السودان والجمهورية العربية المتحدة وقد جمعتهما لغة واحدة وأدب عربى متين يعبر عن خلجات النفوس ، ويفصح عن مكنونات الصدور ويصور ما يجيش فى القلوب من آمال وتمنيات .

جمال الدين الرمادى

المدائح النبوية في الأدب السوداني

المدائح النبوية فن جديد من فنون الشعر ظهر بظهور الإسلام وتردد على ألسنة الشعراء فى صدر الإسلام ثم حاكاه الشعراء اللاحقون حتى العصر الحديث ووجدوا فى نظمه لذة ومتعة لأنه يرضى أرواحهم ونزعاتهم الدينية واتجاهاتهم الصوفية من ناحية ويرضى مزاجهم الفنى وحاستهم الأدبية من ناحية أخرى .

وقد كان الناس يعتبرون رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولا يزالون يعتبرونه حتى اليوم .. فضلا عن مكانته الدينية السامية ومقامه الروحى العظيم — أفصح العرب لهجة وأبلغهم حجة وأعذبهم كلما وأغزرهم حكما وأوجزهم عبارة وأعلمهم بلغات قبائل العرب وأقدرهم على مخاطبة كل قبيلة بلهجتها وكانوا يجدون فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولا يزالون يجدون فيها — الدر والجوهر الكريم ويجدون فى مجازه مالم يجدوا عند غيره من البشر كقوله عند احتدام الحرب (الآن حمى الوطيس) وقوله فى الأهبة للحرب (ياخيل الله اركبى) وقوله (مات حتف أنفه) وقوله (هذا يوم له ما بعده) .

وقد بهر هذا الدين الحنيف... بهذه البلاغة المتدفقة وهذا البيان المبين...الشعراء ففاضت ألسنتهم بمديحه وانطلقت أشعارهم بتمجيده ومن هؤلاء الشعراء حسان ابن ثابت أشعر شعراء رسول الله الذى ينتمى إلى بنى النجار من قبيلة الخزرج وهى إحدى القبيلتين الأختين اللتين سميتا بعد هجرة النبى إلى المدينة بالأنصار كما مدح الرسول عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير بن أبى سلمى المزنى الذى أسلم أخوه بجير ودعاه إلى الإسلام فأبى عليه وسبه وهجاه وكان الإسلام قد نشأ فى عامة قبائل العرب فطفق يستجير بقبيلة بعد قبيلة وكلها لا تجيره على رسول الله فلما اشتد عليه الطلب وأرجف الناس بأنه مقتول ، عزم على الإسلام فقدم المدينة واستجار بأبى بكر رضى الله عنه فجاء به إلى رسول الله وأسلم وأنشده قصيدته اللامية المشهورة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

ومنها قوله : نبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول
فقد أتيت رسول الله معتذرا والعذر عند رسول الله مقبول

فرضى رسول الله عنه وخلع عليه بردته ، فباعها ورثته من بعده لمعاوية بعشرين ألف درهم ثم بيعت للخليفة المنصور بأربعين ألفا .

كما مدح البوصيرى النبى صلى الله عليه وسلم بقصيدة من درر قصائده وهى قصيدة « البردة » المعروفة التى ألف على غرارها أحمد شوقى أمير الشعراء قصيدة أخرى تسمى (نهج البردة) وتتفق نهج البردة مع البردة فى الموضوع وفى الوزن والقافية بل وفى طابع الأسلوب أيضا ، كلتاهما فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكلتاهما على وزن البسيط متراكبة القافية ميمية الروى مضمومة المجرى وكلتاهما تصطنع البديع .

وقد نظم البوصيرى قصيدته فى القرن السابع الهجرى بعد أن أصبح مريضا عاجزا أبطل الفالج شقه وانقطع الرجاء فى شفائه . . نظمها توسلا إلى الرسول علّه يفرج عليه كربته وينزع عنه غمته حتى رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه فمسح على وجهه بيده المباركة وألقى عليه بردة فانتبه ووجد نفسه فى نهضته فقام واستهل قصيدته بقوله :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضم

أما شوقى فقد ألف نهج البردة تذكارا لحج الأمير عباس حلمى الثانى عام ١٣٢٧ هـ وتقربا إلى الرسول الكريم واستهلها بقوله :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم
رمى القضاء بعينى جؤذر أسدا ياساكن القاع أدرك ساكن الأجم

ولقد امتلأ الشعر السودانى بكثير من المدائح النبوية وذلك لأن الإسلام عندما دخل السودان وجد نفوسا تؤمن به إيمانا شديداً وتتعلق به تعلقا عظيما وتتحمس تحمسا ترخص فيه الدماء وتهون معه الأرواح وتشرع فيه السيوف إما إلى الانتصار وإما إلى الموت والفناء ووجدت فى السودان مذاهب دينية

متعددة ومدارس صوفية تسعى إلى نشر الدين والزهد فى الماديات والتمسك بالروحانيات ومن أهم الآثار الاجتماعية التى ترتبت على نشر العقيدة الإسلامية أن برزت تجمعات دينية فى مظاهر شتى منها الاندماج القبلى واتحاد القبائل السودانية كلها وصيرورتها وحدة لا تتجزأ وجسما واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، ومنها التجمع الصوفى الذى كان نواته شيخ القبيلة وكان مقره نادى الأفراد جميعا . ثم انتشرت الطرق الصوفية ورحل الناس من مختلف أنحاء السودان إلى الزوايا للاتصال بالشيوخ وتلقى الطرق فخلق ذلك جواً دينيا صافياً وبيئة دينية لعبادة الله الواحد القهار والتسبيح بفضائل نبيه المختار ، وأكثر الصوفية المتأخرون من المدائح النبوية الفصيحة ، ونظموا السيرة النبوية وبعض القصص الدينية كقصة الاسراء والمعراج وغزوات النبى . . فى شعر فصيح . وأخرج السيد محمد عثمان الميرغنى ديوان (النور البراق فى مدح النبى المصداق) وأخرج السيد أحمد بن إدريس ديوان (رياض المديح) كما أخرج الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم ديوان (روض الصفا فى مدح المصطفى) والشيخ محمد الأمين أبو قرين ديوان (الجواهر الزكية فى مدح خير البرية) .

وعارض الشيخ الطاهر المجذوب بيت البوصيرى (أمن تذكر جيران بذى سلم) فقال :

هل ضاء برق دجى الأسحار من إضم   أم نور ليلى بدا ثغرا لمبتسم
أم تلك عين المها تمشى على وهن   ترمى بلحظ عيون كل ذى سقم

وللشيخ الأمين محمد الضرير رئيس علماء السودان الأسبق قصيدة يمدح بها الرسول والطريف فى هذه القصيدة أنه ضمنها أسماء سور القرآن على حسب ترتيب المصحف الشريف وتمتاز فضلا عن نزعتها الصوفية بطابع فنى دقيق استطاع الشاعر أن يصوغه فى قالب شعرى جذاب فقال :

يارب صل على من كان فاتحة   بكر الوجود به عمراننا اتصلا
ما للنســـاء كمثل المصطفى ولد   إذ منـه مائدة الأنعام والعقـلا

أعرافه المسك والأنفال وافرة لمن به توبة كي تذهب الوجلا

ففي هذه الأبيات الثلاثة استطاع الشاعر أن يذكر أسماء الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والأعراف والأنفال والتوبة وهذه قصيدة فنية ما في هذا شك تستحق الذكر والتسجيل

وقال الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم شيخ علماء السودان يمدح الرسول بقصيدة عصماء استهلها بالغزل على طريقة القدماء فقال :

ليلى بدت لما أضاء الكوكب فمحت ضياه وزال عنا الغيهب
واستقبلت قمر الزمان فناله من حسنها الكلف الذى لايذهب
وتفردت فى حسنها ودلالها وحوت من الأوصاف ما يستغرب
فتزاحمت عشاق فرد جمالها كل لحسن وصالها يتطلب
لما رأتهم عاكفين ببابها وعليهم ثوب التذلل يسحب
قالت لهم حتى أطالع حالكم وأرى حقيقة ما إليكم ينسب
والعشق صعب لا يطيق حروقه إلا الذى لعذابه يستعذب
وأنا بجاهك يا رسول الله أر جو أن أكون من الألى لك حببوا
وتحققوا بكمال عشقك واستنا روا من ضياك فأكرموا وتقربوا
أنت الذى يجد المؤمل كل ما يرجوه منك وبرّ جودك أقرب

والشيخ الطيب أحمد هاشم مفتى الديار السودانية السابق قصيدة يشطر فيها قصيدة لسان الدين بن الخطيب ويمدح فيها الرسول وهى لا تقل عن قصيدة ابن الخطيب ورعا وتقى ولا تنقص عنها أصالة وفناً ، جاء فيها :

يا شافع الخلق المهذب خلقه يا خير مؤتمن وخير نصيح
أقرضت فيك الله صدق محبتى لأنال يوم العرض كل مريح

ثاجرت فيك الله ربى مادحا أيكون تجرى فيك غير ربيح
حاشا وكلا أن تخيب وسائلى أو أن أبوء بصفقة المفضوح
أو أن أكون مبعّداً عن شافعى أو أن أرى مسعاى غير نجيح
إن كان وجهى سودته قبائح يوماً فوجه العفو غير قبيح

وقد حركت الأعياد النبوية فى نفوس الشعراء كثيراً من العواطف وأثارت فيها شتى الأحاسيس فنظموا القصائد الجيدة فى مدح الرسول ووصف ليلة مولده بأنها كانت حداً فاصلا بين الظلمة والنور والجهل والمعرفة والليل المدلهم والصبح المشرق المنير فقال السيد عثمان هاشم فى إحدى قصائده النبوية :

بجلال ذكرك تفخر الأعوام وبحسن يومك تزدهى الأيام
يا ليلة الميلاد حسبك مفخرا نور عليه من النبيّ تمام
ضاءت به الدنيا وأزهر نورها بالمسلمين وأشرق الإسلام
شرفاً بأحمد خير من وطىء الثرى وله على السبع الطباق مقام
من قد هدى الله العباد به ولو لم يهدهم لعلى الضلال أقاموا

ومن أطرف القصائد التى كتبت فى مدح الرسول قصيدة الشيخ محمد المجذوب التى يمدح فيها النبي ويستهلها بكلمة (سلام) ويزجى فيها السلام إلى كل طرف من أطراف الرسول فيقول :

سلام على رأس الرسول محمد لرأس جليل بالجلال معمم
سلام على وجه النبى محمد فيا نعم وجه بالضياء ملثم
سلام على طرف النبي محمد لطرف كحيل أدعج ومعلم
سلام على أنف النبى محمد لأنف عديل أنور ومقوم

وقال الشيخ موثر ابراهيم أحد علماء السودان وينتمى إلى قبيلة (الجعليين) المشهورة يمدح رسول الله :

النبي الرسول رحمة ربى الذى قد حباه أكمل عصمة
ودعاه إلى الوصال إليه ودعاه وقومه خير أمة

واصطفاه وخصه واجتباه شافعاً لدى الأمور المهمة

وحماه وفيه أودع سراً ليس يدرى وكم به زاد نعمة

صلوات من الكريم عليه وعلى آله الكرام الأئمة

مع سلام به ننال اتصالا مع دوام الرضا وحسن التتمة

هذه هى نغمات من الشعر السودانى فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وهى نغمات عاطرة تفوح بالحب الطاهر والابتهال الصادق والولاء العظيم وتفصح عن جوانح تخفق بحبه وتنبض بالتسبيح بحمد الله تعالى وحمده إذ أرسله الله للناس شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا .



معلقة سودانية

هى قصيدة سارت بها الركبان . . ودارت على الألسنة فى كل مكان . . واعتبرها بعض النقاد فى السودان فى شهرة المعلقات ألا وهى قصيدة (الحرب صبر) التى نظمها الشاعر محمد عمر البنا فى حروب المهدى فى بلاد النوبة .

وبرغم أن هذه القصيدة تقل فى عدد أبياتها عن المعلقة إلا أنها تحمل طابع المعلقة فى وصف البطولة والبسالة والاقدام والتعرض للمواقع والحروب . فإن القارئ لهذه القصيدة يكاد يسمع بين أبياتها قعقعة السلاح ورنين السيوف وصهيل الخيل وطلقات الرصاص ، وتلوح أمام عينيه صور البطولة صادقة معبرة (مثيرة مؤثرة) تملك الشاعر وتصل إلى شغاف القلوب .

وصاحب هذه القصيدة هو الشيخ محمد عمر البنا وهو أحد أعلام الأدب والشريعة فى السودان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين وقد ولد فى قرية رفاعة فى بيت ينتمى إلى قبيلة الجعليين وكان منذ نعومة أظفاره ميالا إلى الأدب حريصاً على الاطلاع لا يدخر وسعاً ولا يألو جهدا فى سبيل العكوف على دواوين الشعراء وحفظ شعر الفحول منهم وتتبع دراسة الأدب العربى فى مظانه الأولى عند الجاحظ والأصفهانى وابن عبد ربه وغيرهم من مؤرخى الأدب فى عصوره الزاهية .

وقد حضر محمد عمر البنا إلى مصر للانتهال من معين الثقافة الدينية فى الأزهر فلما أتم دراسته فى المعهد الشريف عاد إلى السودان حيث كان من أنصار المهدى ومن الداعين له المنافحين عن سياسته المصورين لجهاده وبلائه فى سبيل بلاده فنظم هذه القصيدة المعروفة وهى قصيدة (الحرب صبر) فكانت درة لامعة فى جبين الأدب السودانى بل فى جبين الأدب العربى على العموم وجاء فى مطلع هذه القصيدة :

الحرب صبر واللقــاء ثبات ‏ والموت فى شأن الإله حياة
الجبن عار والشجاعة هيبة ‏ للمرء ما اقترنت بها العزمات
والصبر عند الناس مكرمة ومقـ ‏ ـدام الرجال تهابه الوقعات
والاقتحام إلى العــدو مزية ‏ لا يستطاع لنيلها غايات

وهذه الأبيات الأولى تصور شيئا من فلسفة الحروب التى يجب أن يدركها الجندى فى ساحة القتال فلابد من الصبر ولا بد من الثبات والذكرى للانسان عمر ثان . والوصمة الكبرى فى جبين الجندى هى الجبن والخوف ، والغرة البيضاء فى جبين الجندى هى الشجاعة والإقدام والصبر على الشدائد والملمات ومن أساطير العرب أن الوباء لقى جيشاً فسأله القائد « فيم أنت مسرع إلى بغداد ؟ » فقال « لأحصد خمسة آلاف نسمة فلما قفل الوباء راجعا لقى الجيش مرة ثانية فقال القائد ساخطا « إنك خدعتنى لقد حصدت خمسين ألفا بدلا من خمسة آلاف » فقال : « لم أحصد إلا خمسة آلاف أما الجزع وفراغ الصبر فقد قتل البقية الباقية » .

فالصبر إذن من أعظم الميزات التى يجب أن يتحلى بها الجندى فى ميدان القتال ولا يتخلى عنها لحظة واحدة سواء فى مقاتلة العدو أو مجابهة الأحداث . والصبر هو الفضيلة التى تغنى بها شاعرنا محمد عمر البنا فى قصيدته فجعل ذكره مطلعا لها . .

وتتضمن هذه القصيدة كذلك لونا من فلسفة الحياة والموت فلا خير فى حياة رذيلة يكتنفها الذل ويطويها الاستعباد ولاخير فى حياة لاينعم المرء فيها بنسيم الحرية والاستقلال و « لكل أجل كتاب » و « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » وإذا كان لا مفر من الموت ولا مهرب من الهلاك فإن الموت فى حومة الوغى وفى سبيل الأهداف القومية خير من الموت على الفراش .

والعمر فى الدنيا له أجل متى ‏ يقضى فليس تزيده خشيات
فعلام خوف المرء ان غشى الوغى ‏ نفس الكريم وحانت الأوقات

والفخر كل الفخر بيع النفس لله العلى وأجرها الجنات
إن الجهاد فضيلة مرضية شهدت بحكم أجرها الآيات

وقد رسم لنا الشيخ محمد عمر البنا فى قصيدته كذلك صورة صادقة لما يدور فى المعركة إذا حمى وطيس القتال إذ تسيل الدماء وتتقطع الأشلاء وتتصاعد الأرواح إلى ربها تشكو بلواها من ظلم القوم الظالمين .

قوم إذا حمى الوطيس رأيتهم شم الجبال وللضعيف حماة
ولباسهم سرد الحديد وبأسهم شهدت به يوم اللقا .. الغارات
ركبوا الجياد وغادروا شاو العدا رزق النسور ولحمهم أقوات
والخيل ترقص بالكماة كأنها تختال فى ميدانها فتيات
فأثرن نقع الموت فى عرصاتهم وأغرن صبحا إذ علت أصوات
وذباب أسياف المنية فوقها رعفت دما وجلاؤها الهامات
والأرض سالت بالدماء وما بها غير الجماجم والشعور نبات

ولا شك أن هذه الصورة تبين لنا فى وضوح وجلاء فظائع الحرب الطاحنة . وهى لا تقل فى صدقها عن تلك الصورة الأدبية التى رسمها الشاعر أبو تمام لفتح عمورية . تلك المدينة الحصينة التى أعيت الملوك والأقيال غير أن الخليفة المعتصم أراد أن يجتث منها أسس الفساد والطغيان وهب جيشه هبة واحدة لإنقاذ البلاد من براثن الظلم والاستعباد .

وقد صور أبو تمام يوم الفتح تصويرا يهز أعماق القلوب كما صور الحرب الطاحنة تصويرا يملأ الأنظار والأسماع جميعا وقد حاول السيد محمد عمر البنا أن يبلغ شأو أبى تمام فى الإبداع فكان له منه نصيب ملحوظ .

وقد بين الشاعر محمد عمر البنا فى قصيدته أن الهدى لم يشن الحرب الضروس رغبة فى إزهاق الأرواح وإراقة الدماء ، وإنما من أجل تدعيم أركان الدين وقطع دابر الفتنة فقال :

فانهض إلى الخرطوم إن بسوحه أهل الغـــواية والمفاسـد باتوا

بطروا وزادوا ثم صدوا معشرا فى الله لم تعـــرف لهم رغبات

وتـكبروا وعتوا عتوا فاتقــــا والله أكبر والسيوف هداة

نبذوا الشريعة من وراء ظهورهم عن دينهم شغلتهم الشهـــوات

الله أكبر لن يدوم صنعهم هذا وأنتم للأنام رعـــــاة

وقد دعا الشاعر إلى فعل الغزاة الأوائل فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فلم تـكن قوة تصرفهم عن تحقيق أغراضهم أو تحول بينهم وبين أمانيهم مهما طال الأمد وتوالت الأحداث وقد كانت حصون خيبر من أمنع حصون اليهود وكانو يستميتون فى الدفاع عنها إيمانا منهم بأن هزيمتهم أمام محمد قضاء أخير على بنى إسرائيل فى بلاد العرب وتتابعت الأيام فبعث الرسول أبا بكر إلى حصن كى يفتحه فقاتل ورجع ولم يكن الحصن قد فتح وبعث الرسول عمر بن الخطاب مرة أخرى على جيش قوى العتاد والعدة إلا أن حظ عمر بن الخطاب كان كحظ أبى بكر فدفع الرسول بالراية إلى على بن أبى طالب وقال له : خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك ومضى على بالراية فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه فتناول على بابا كان عند الحصن فتترس به فلم يزل فى يده يقاتل حتى فتح الحصن وتم النصر للمسلمين وقد راقت هذه الغزوة الشاعر محمد عمر البنا فأراد أن يتخذها المسلمون مثلا أعلى فى الصبر والجلاد والتضحية والفداء وبذل النفس والنفيس فقال :

خذ جيشك المنصور لا تحفل بهم ولتقدمن أمـــــامه الرايات

فتســـوروا لهم الخنادق وافعلوا فعل الصحابة إذ أتت غـــزوات

فتحوا حصون الخيبرين التى زعمـــوا بأن حروبهم هلـكات

تلك هى قصيدة محمد عمر البنا فى حرب المهدى وهى كما قلت مشهورة اشتهار المعلقات فى السودان ومن القصائد الغر والـكلمات الأبكار التى حفل بها تاريخ

الأدب السودانى فلا غرو أن يقف الشاعر أحمد محمد صالح بعد ذلك على قبر شاعرنا يسكب الدمع الهتون ويرسل الزفرات الحرى ويقول :

أخفيت بدراً ساطعا وسترت نجما ثاقبا ... وحجبت شمس نهـــار
الله أكبر قد هوى الطود الذى ... قد كان منبع حكمـــة ووقار



الجمال في شعر سعيد العباسي

محمد سعيد العباسي شاعر سودانى ممتاز من شعراء الرعيل الأول . ساهم بنصيب كبير وقسط موفور فى النهضة الأدبية فى السودان فى العصر الحديث بما نظمه من قصائد حسان ومقطوعات عذبة من الشعر الجميل الذى سطر اسمه فى سجل الخالدين .

وتحلى شعر سعيد العباسي بعبارة الجمال . . أينما كان وحيثما وجد . . وكلما تراءى لعينه ولاح لبصره فسكب سحره فى ناظريه وقلبه جميعاً .

وأول ما بهر بصر العباسى جمال الطبيعة فهى الأم الرءوم التى ترى الشاعر بين أحضانها وارتوى بلبانها وسحرته بجمالها وبهرته بمفاتنها ومرابعها وغذته بقبلاتها ووداعتها .

تأمل وهو يقول فى مليط وهى مركز من مراكز دارفور بالسودان وتبعد عن مدينة الفاشر عاصمة المديرية بسبعين ميلا تقريباً شمالا ويسقيها واد عظيم يسمى وادى مليط يأتيها من الغرب وينتشر فيه الزرع والفاكهة ومختلف ألوان النبات

حياك مليط صوب العارض الغادى
وجاد واديك ذا الجنات من واد
فكم جلوت لنا من منظر عجب
يشجى الخلى ويروى غلة الصادى
أنسيتنى برح آلامى وما أخذت
منا عطايا بإيجان وإيخاد
كثبانك العفر ما أبهى مناظرها
أنس لذى وحشة رزق لمرتاد

فباسق النخل ملء الطرف يلثم من

ذيل السحاب بلا كد وإجهاد

كأنه ورمالا حـولـه ارتفعت

أعـلام جيش بناها فوق أطواد

وأعين الماء تجرى من جداولها

صـوارما عرضوها غـير أغماد

والورق تهتف والأظلال وارفة

والريح تدفـع ميـادا لميـاد

لو استطعت لأهديت الخلود لهـا

لو كان شىء على الدنيـا لإخلاد

وهكذا كانت الطبيعة فى مليط وحيا ملهماً للشاعر وغذاء روحيا لقلبه تدفق من قريحته الفياضة ومن روحه الموهوبة عذبا حلوا طروبا .

وبرغم أن العباسى يحفل بالعبارات القوية والألفاظ الرنانة ويحرص على نسج العبارة وحبكة التركيب وانتقاء الألفاظ ونهج منهج الأقدمين فى شعرهم فى بعض الأحيان ، إلا أن شعره يمتاز بحب جارف نحو الطبيعة وهيام شديد بها وافتتان لاحد له بجمالها وحب الطبيعة يمتلك نفسه امتلاكا ويستحوذ على لبه استحواذا ويشيع فى أبياته كالنغم الحلو الطروب ويتضوع من عباراته كالعبير العاطر والشذى الفواح .

ومكان كأن كل نسـيم

ناشر فى رحابه طيب نشر

يبهر العين منه مرأى أنيـق

من مروج قيـد النواظر خضر

فهنـاك الرياض والماء يجرى

بخرير تحت الرياض وقـدر

وهنـــاك النسيم يعبث بالمـا

ء ويجرى والورق للمـاء تغرى

وهنـــاك البهى من كل زهر

وهناك الشجى من كل طـــير

فإذا ما غنت بلابـــله قلـ

ـت كرام أضناهمو طول هجر

بقعـة شا كلت هـوى كل نفس

فصبا نحو حسنهـا كل فـكر

ويعتبر الشاعر سعيد العباسى منشىء الطريقة السمانية بمصر والسودان وله كتاب النغمات الإلهية السمانية وهو كتاب فى آداب الطريقة السمانية وأورادها وفيه آداب للمريد السالك وكيفية الرياضة والتحدث فى الخلوات وكيفية الذكر وبيان حضور الذاكر مع الله بقلبه . وألف قصيدة طويلة فى هذا المذهب تسمى (النغمات السمانية) تظهر لنا فيها صور الجمال باهرة وهى التى أعجب بها الشاعر العباسى فرسمها فى شعره وخلعها على محبوبته فقال :

ألا يا حمـام الركب قد زدتنى كربا

رويدك لا تذكـر بتغريدك الركبا

وأيام أنس لم نمتـــع بحســـنها

طويلا وقلبى لا يزال بهـا صـــبا

وإنى يوم البين من شـــغفى بهم

لبست برود الدمع من بعدهم ثوبا

قفا خبرانى عن رفاق توسطت

مطيهم الهيجاء ينهبنهـــا نهبـــا

وقد رحلت ســـلمى ولم يك عن قلى

ومذ غادرتنى لم يزل ربعى جـــدبا

حفظت لها عهد الهوى مذ عرفتها
فأركبني شوق لها مركبا صعبا
تطالبني الأيام كل جميلة
كأني جان في وجودي بها ذنبا
تزودت منها وهي عبرى بنظرة
فما تركت لي بعدها والهوى لبا
عجبت لذات الدل تحمل ردفها
وعهدي بها من حمل خلخالها غضبي
لها أعين نجل إذا ما رنت بها
تدير عليك الزنجبيلية الصلبا
سليمى اذكرى صبا بعهدك حافظا
له قصص في الحب تستغرق الجعبا
وقفت على ربع الأحبة خائرا
وقد أخذوا لي في هوادجهم قلبا

وهكذا كان العباسي يفتتح نغماته السماوية بهذا الغزل العذب الجميل وهذه الصورة الأخاذة من صور الجمال حتى يهيىء النفوس لنغماته الروحية السامية وشطحاته الغيبية الواسعة وكان في شعره برغم زهده وورعه يحب الحب ويدعو إلى تقديس الجمال والنشوة من السحر الشهى الحلال .

لله صب معذب يهوى الحسان ويطرب
أضناه طول التصابي وذاك أصعب مركب
يزيد في العين حسنا مهما قلى أو تجنب
قلبي رهين لأحكا م ذي الجمال المحبب
مولى تردى بحسن وبالدلال تجلبب
يا حاكم القلب لي نهب لعينيك فانهب

فأي شيء أصدق من هذه الأبيات وأي نفس لا تطرب لصور الجمال العذبة هذه التي تفتن القلوب وتخلب الألباب .

الحنين إلى مصر في شعر العباسي

الشاعر محمد سعيد العباسي منشىء الطريقة السمانية بمصر والسودان شاعر سودانى ممتاز . قام بنصيب كبير فى إحياء الحركة الأدبية فى السودان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين .

ورغم أن الشاعر سعيد العباسي ينحو فى كثير من قصائده منحى الشعراء العرب القدماء من حيث توشية الديباجة وجودة الرصف ومتانة التركيب وجلجلة الألفاظ فإن شعره يفيض بعاطفة قوية زاخرة تنم عن نفس حساسة رقيقة وشعور متدفق غزير .

والشاعر العباسي يحمل لمصر حباً عظيما وشوقاً كبيراً ولديه ذكريات عذبة لأوقات عزيزة قضاها بين ربوعها فظلت حية لا تبرح خياله ولا تترك باله فبعد استرجاع السودان ودخول الجيش المصرى طلب القائد كتشنر من والد محمد سعيد العباسي إلحاقه بالمدرسة الحربية المصرية فالتحق بها فى ٢٨ من مارس عام ١٨٩٩ وأدرج فى عداد تلاميذ من السودانيين يبلغون ٤٥ تلميذا . وبعد سنتين أصبح أستاذ اللغة العربية بالكلية الحربية الشيخ محمد عثمان الزناتى الذى استحثه على التعمق فى دراسة الأدب وقرض الشعر . وكان كلما يجوس خلال أشعاره فكأنما يمشى فى الرياض اليانعة أو يقطف أحلى الأزهار فى جنان تجرى من تحتها الأنهار وكلما قرأ غزله أحس كأنما رجع إلى أيام الشباب وتمتع بلحظاته وتذكر فيه الأيام الغضة أيام كان يقضى لبانات الهوى بين أزهار الشعر ويستغنى بالأدب عن الشراب . .

أتيح لسعيد العباسي أن يقضى فترة من العمر بين ربوع مصر فتركت هذه الفترة فى نفسه ذكرى عاطرة لا يذهب شذاها ولا ينضب معينها وقد آمن العباسي بحب مصر واعتقد أن وادى النيل من شماله وجنوبه جزء لا يتجزأ مهما أرجف المرجفون ومهما تقول الكاذبون ومهما ألمت الحوادث ومن ثم كان العباسي

شديد الحنين إلى مصر تلمس فى شعره شوقاً إلى جوها وحنيناً شديداً إلى أرض الكنانة فهاهو ذا يذكر أيامه الحلوة مع المروج الخضراء والخمائل الجميلة والضفاف الفاتنة والنيل المتدفق الجارى :

هل إلى مصر رجعة وبنا شو ق شباب غض وزهرة عمر
وليال قد أشرقت فى رباها كلها فى الأقدار ليلات قدر
ومكان كأن كل نسيم ناشر فى رحابه طيب نشر
يبهر العين فيه مرأى أنيق من مروج قيد النواظر خضر
فهناك الرياض والماء يجرى بخرير تحت الرياض وقدر
وهناك النسيم يعبث بالما ء ويجرى والورق للماء تغرى
وهناك البهى من كل زهر وهناك الشجى من كل طير
فإذا ما غنت بــلابله قلت كرام أضناهمو طول هجر
بقعة شاكلت هوى كل نفس فصبا نحو حسنها كل فكر
رب هل تلك جنة الخلد إذ جلسـ نا إليها أم تلك جنة سحر
كنت فى ذلك الحمى ناعم البا ل خلياً من كل قيد وأسر

فمصر فى عين العباسى مهد الحب والجمال ومهبط السحر الحلال ومبعث الذكريات العذبة ، طبيعتها تختلب الألباب اختلابا وتستلب العقول استلابا فهى بمثابة جنة من جنات الخلد وفردوس فى فراديس السماء وهى قبل هذا وبعد هذا كله موئل الحرية والأحرار تتحطم فيها القيود ويفك فيها الأسار .

ومصر فى عين العباسى شمس ساطعة منيرة تنشر النور فى كل مكان وتبعث الحياة فى كل قلب . ساحرة تسحر العقول ، جميلة تحير الألباب . موحية للشعر وملهمة للفن وقومها كرام لا يعرف البخل إليهم سبيلا ولا يجد الشح إلى نفوسهم طريقا فلو أنهم ملكوا إرجاع الشباب إلى الشاعر لما توانوا لحظة واحدة . ففى أحضان مصر شب الشاعر وترعرع ولذلك كان حريصاً كل الحرص على إحياء مجدها الغابر وعزها التليد وحضارتها العريقة وفى هذا يقول :

مصر وما مصر سوى الشمس التى ... بهرت بثاقب نورها كل الورى
ولقد سعيت لها فكنت كأنما ... أسعى لطيبة أو إلى أم القرى
وبقيت مأخوذاً وقيد ناظرى ... هذا الجمال تلفتا وتحيرا
فارقتها والشعر فى لون الدجى ... واليوم عدت به صباحاً مسفرا
سبعون قصرت الخطا فتركننى ... أمشى الهوينى طالعاً متعثرا
من بعد أن كنت الذى يطأ الثرى ... زهواً ويستهوى الحسان تبخترا
ما إن وجدت بجمهم ما أشتهى ... هل من شباب لى يباع ويشترى
ولو انهم ملكوه ما بخلوا به ... ولأرجعونى والزمان القهقرى
لأظل أرفل فى نعيم فاتنى ... زمن الشباب وفته متحسرا
يا دار أين بنوك أخوالى الألى ... رفعوا لواءك دارعين وحسرا
زانوا الكتائب فاتحين وبعضهم ... بالسيف ما قنعوا فزانوا المنبرا

والعباسى شاعر يمتاز بتبحره فى اللغة وحرصه على أصولها والتزامه بقواعدها فى سبيل الوصول إلى دررها ومكنوناتها وأصدافها البراقة ولذلك كان يحمد لمصر غيرتها على العربية وحرصها على حفظ تراثها الخالد فلما أخرج الدكتور زكى مبارك كتابه عن رسائل إخوان الصفا شكر له هذا العمل الأول المجيد وقال مخاطباً بنى مصر :

بنى مصر حياكمو ذو الجلال ... بعرف تحياته الزاكية
وأسدى بإحسانه منعماً ... لكم كل صالحة باقية
بكم عدت اليوم أم اللغات ... كحسناء فى حفلة صافية
حملتم بمصر وبالمشرقين ... رسالة آدابها العالية
أجل وشأوتم بسحر البيان ... عباقرة الأعصر الخالية
بيان كذى البدر فى تمه ... يشق حشا الليلة الداجية
بلونا الكرام فكانوا البناء ... وكنتم له حجر الزاوية

وأنشد العباسي في حفل تكريم أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة عصماء من عيونه بين فيها فضل الشاعر المصري على دولة العلم والأدب واستهلها بقوله :

يا شاعر الضاد يا صناجة العرب اسلم لدولة أهل الفضل والأدب
واستقبل العمر لا تعدوك حدته تبلى بها جدة الأيام والحقب
يا فخر مصر بماضيها وحاضرها وسعد مصر بهذا الشاعر الأرب
ناضلت عنها فما خانت ولا وهنت قواك في غير ما من ولا صخب
مواقف وقعها في كل نازلة وقع السلامة في أحشاء مضطرب
قم ذكر القوم بالماضين ما فعلوا واذكر لهم كيف كانت دولة العرب

ثم اختتم القصيدة بأبيات يبعث فيها شوقه إلى مصر ويذكر جميل أهلها عليه ، فقال :

واهاً لمصر وأوقات سعدت بها لقد تقضت ولما أقض من أرب
يخونني الصبر إن غالبت دونكم حر اشتياقي ودمعا جد منسكب
عندي لكم يد فضل لست أجحدها يد الزناتي مولى العلم والحسب
وحرمة الدين والآداب جامعة ولا اعتبار لبعد الواد والنسب

أما قصيدته في ذكرى حافظ إبراهيم فقد عدد فيها العباسي الصلات الوثيقة التي تربط بين مصر والسودان ومنها اللغة العربية والدين والنيل والمصالح المشتركة والمنافع المتبادلة وغير ذلك فقال :

بني مصر الكرام ولا برحتم مثالا للشعوب العاملينا
سعيتم نحو غايتكم كراما وذدتم دونها مستبسلينا
تحررتم ونحن بشر حال نكابده ونرسف موثقينا
وقد نزلت بنا محن شداد أذاقتنا من البلوى متونا
أذلت أنفس الأحرار منا فباتوا بعد عزتهم قطينا
خذوا بيد البلاد فثقفوها وكونوا من حرارتها المعينا
أعينونا فنحن بنو أبيكم لنا حق ونحن الأقربونا

لنا بالدين والفصحى ائتلاف وثيق ضم شعبينا قرونا
ونيل فاض كوثره فأجرى بواديه الحياة لنا معينا

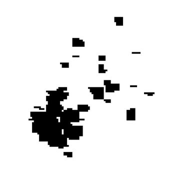
وهكذا كان العباسى يجد فى مصر مبعث النور إلى السودان ومنبع الحياة والأمل ، ولشد ما ثارت نفسه وأدركه الغضب فى قوم يجرون وراء الأجانب ويصدقون الوعود الخلابة والأمانى الكاذبة ويتشدقون برطانة الدخلاء ويزعمون أنهم من طينة غير طينة البشر .

قد رابنى من بعضكم ما كان من أمر نكر
خلق كأن قد خلقوا من غير طينة البشر
زهوا علينا بوريقات أصابها عسر
أو طائرات بالسما ترمى الأعادى بازبر
ألا جرت أقلامكم لنا من الآى الغرر
كمثل شوقى إذ شدا والرافعى إذ نثر
إن لم تكونوا هم فما هذا التعالى والصعر
الفخر بالناب ولا ناب لكم ولا ظفر
والعزم جانب من الـ أخلاق محمود الأثر

وهكذا كان العباسى يحب مصر حباً جما ويشعر نحوها بحنين زائد وشوق شديد وكان يحمل لأهلها كل تقدير وتبجيل ويزهو ويفخر بهم فى معرض الزهو والفخار ، ويعتقد أن هناك رباطاً مقدساً بين شمال الوادى وجنوبه يجمع بين أهل الشمال وأهل الجنوب بالدين واللغة وبالدم العربى وما إلى ذلك من روابط هيهات أن تبليها الأيام

فلا غرو إذن أن ينبض شعره بهذا الحنين القوى كأنه عاشق لوعه الحب وهدّه الشوق لمعشوقة فاتنة ملكت عنان قلبه وبلغ حبها أغوار فؤاده .





خطرات فی شعر عبد اللہ عبد الرحمن

الشاعر عبد الله عبد الرحمن شاعر سودانى ممتاز من شعراء الطليعة فى السودان يمتاز شعره بعذوبة اللفظ وجلال المعنى وروعة البيان . تخرج فى كلية غوردون وتأدب على يد الشاعر الكبير عبد الرءوف سلام الذى لقنه أساليب الفصحى وزوده بذخائر الأدب العربى ، فلما بلغ أوج الشباب ونزل الى معترك الحياة كان صاحب أسلوب عصرى مبين ، ومؤلفاً لدواوين شتى ولكتاب طلى مفيد هو كتاب العربية في السوادن الذى سد به فراغاً كبيراً فى المكتبة العربية والدراسات السودانية ومن أبرز السمات التى يمتاز بها الشاعر عبد الله عبد الرحمن أنه مادح ممتاز من مادحى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو لا يمدحه كما يمدح الشاعر الخليفة أو السلطان ليظفر بنواله أو ينعم برفده إنما يمدحه مدح العاشق الولهان الذى ذهب الهوى به كل مذهب وتركه هائما فى بيداء الغرام .

ويبدأ عبد الرحمن معظم مدائحه بذكر الخمر والصهباء ولكنها ليست كتلك الخمر التى كان يتغنى بها الشاعر أبو نواس ومن لف لفه من شعراء الخمر فى الأدب العربى ، إنما هى خمر أخرى لم تمنعها الأديان ولم تحرمها الكتب السماوية وإن فعلت فى النفوس فعلها فأذهلت العقول وحيرت الالباب ألا وهى خمر ذكر رسول الله الذى تهتز له القلوب طربا وتنتشى معه الصدور سحراً .

وفى هذا يقول عبد الله عبد الرحمن :

أدرها بعد نومات العشى	كميت اللون كالخد الوضى
مشعشة بماء المزن زفت	كما زفت خلائق أريحى
حوالبها نواعم آنسات	نواعس ذات لحظ بابلى
وشد إليك أوتار المثانى	وروحنى بلحن الموصلى
فهذا اليوم ميدان التصابى	به تحلو القبابة للشجى

وجاء فى مطلع قصيدة أخرى من قصائده فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

أديرى على الكاس يا ربة الشعـر   وجودى بمعسول الرضابة فى الثغر
لعلى بهـذا الكاس يا عـز أنتشى   فأمسى بادرا كى إلى العالم الشعرى
هـو الشعر فنـان لذى عبقريـة   وما الشعر إلا من شعورك لو تدرى

وللشاعر عبد الله عبد الرحمن حاسة مرهفة نحو الطبيعة فهو يعشقها ويفتتن بجمالها ، ويؤخذ بسحرها ، ويهيم فى مروجها وروابيها ، وينطلق فى مرابعها ومغانيها .. يترنم بأعذب الأشعار ، ويرسل أشجى الغناء . ومن يمعن النظر فى شعره يجد فيه صورة صادقة لجمال الطبيعة فى السودان حيث المروج الممتدة والأشجار الملتفة والجداول الجارية والأطيار الصادحة والأغصان المتمايلة والطبيعة الحالمة التى توحى بالفن وتبعث الشعر حيا :

كم للطبيعـة فى السودان من فتن   وكم لأطيارها من سحر ألحـان
ما أكثر الملهمات الشعر فيه وما   أمدهـا للاديب الهـادم البـانى
الرمل عند ضفاف النيـل تحسبه   لمس الشفاه جلاها بيض أسنـان
وظلمة الليـل فى العتمور ملهمة   خوالد الشعر يرويهـا الجديدان
والسرح والسدر والجميز كارعة   من صيب القطر أو من فيض غدران
كل تسيـل على الآفاق عزتـه   فتملأ النفس من حسن واحسان

وقد تمثلت ثقافة عبدالله عبد الرحمن العربية فى الأبيات التالية لهذه الأبيات حيث استمد بعض معانى المتنبى فى قصيدته فى شعب بوان وهو أحد متنزهات الدنيا بفارس ليضفيها على جمال الطبيعة فى (أبا) وهى جزيرة فى النيل الأبيض بها مزارع السيد عبد الرحمن المهدى وبها متعبده « أى غاره » فقال :

وفى أبا حيث تلق الأرض كاسية   والطير خاطبة من فوق أغصان
تهش للزائرهـا كل آونة   وتملأ القلب من روح وريحان
حيث البداوة فى أجلى مظاهرها   والإبل طالعة من بين كثبان

ما أجمل الريف مصطافا ومرتبعا   وغادة الريف فى حسن كغزلان
الخد لم ترع الوسى جوانبه   والجيد من حسنه عن زينة غان

وقد تجلت فى هذه القصيدة نظرة عبدالله إلى الجمال فهو يعشق الجمال الفطرى الذى لم تشوهه المدنية بطلائها ولم تعبث به الحضارة بألوانها وتتجلى فيه النفس العربية السودانية الصافية والحياة العربية السودانية الصريحة دون تزويق أو تنميق ، ودون تكلف أو تصنع .

وامتاز شعر عبدالله عبدالرحمن كذلك بجنوحه إلى الحكمة وسرده للموعظة الحسنة . والحكمة قطعة من الإحساس العميق بالحياة والفهم الصحيح للوجود ، ونتيجة للتجارب العديدة فى الحياة والنظرات السديدة إلى الكون والامتزاج القوى بالظروف والأحداث ، حلوها ومرها ، والغوص فى النفس الإنسانية والتغلغل إلى أعماقها .

وقد امتزجت الحكمة بشعر عبد الله عبد الرحمن فى مختلف الأغراض ولا سيما الرثاء ؛ فقال .

أيا نفس صبرا للقضاء وسلمى   فما غلب الأيام غير المسلم
ولا تجزعى إن مسك الضر واعلمى   بأن صروف الدهر بالسوء ترتمى
لعمرى لنعم المرء غيبه الثرى   ونعم الفتى باكيه غير مذمم
غيور على الإسلام لم يثن همه   مقالة سوء أو ملامة لوم

وقال كذلك فى قصيدة أخرى :

الناس مرجع أمرهم لفنـاء   والدهر بين شدائد ورخاء
ونضارة العيش الرخى يشوبها   كدر ، وكل لذاذة لبـلاء
دارت علينا يوم بينك أكؤس   بالحزن ملأى لا من الصهباء
وإذا المنية سددت بسهامها   لم تبق من سوق ولا أمراء

ورغم هذه النزعة الحكمية التى كان يمتاز بها عبد الله عبد الرحمن فإنه كان شاعراً مرهف الحس رقيق القلب يعشق الحب والمحبين ويقدس شهداء

الغرام ، فإذا كان العرب يتندرون بقصة قيس بن الملوح وليلى العامرية فإن السودانيين يتندرون بقصة تاجوج وابن المحلق وإذا كان شوقى يسكب الدمع على قبر العاشقين الخالدين فإن عبد الله عبد الرحمن لا يفوته ذلك ، فيقول :

ياقبر تاجوج حياك الحيا وحشا	بصفحتيك شذى ورد وريحان
وابن المحلق لم تبرح حكايته	فى الناس ، يسردها أشياخ حمران
إنى أميل إلى الأشعار يبعثها	حس قوى وأقلى الفاتر الوانى

ويعتبر عبد الله عبد الرحمن من حملة مشاعل العلم والثقافة الجديدة فى السودان ومن الداعين إلى الأخذ بحضارة الغرب والاستفادة من علومهم وأبحاثهم على شريطة ألا يتعارض ذلك مع مقومات القومية السودانية أو يتنافى مع مكونات الشخصية السودانية ، وفى يوم التعليم نهض عبد الله عبد الرحمن وقال :

إن يوم التعليم ياقوم يوم	عبقــرى يناهض الأزمانا
إن يوم التعليم أقبل كالصبـ	ـح مبينــا ونبه السودانا
ولقد صادف الهوى من نفوس	طامحــات تأججت نيرانا
أخذت عدة إلى كل أمر	وبنت من مجــاله إمكانا
إن يوم التعليم ياقوم يوم	إن تحييوه تخدموا الأوطانا

تلك هى خطرات عن الشاعر السودانى عبد الله عبد الرحمن وهى خطرات موجزة نأمل أن توفى هذا الشاعر المجيد بعض حقه .

—*—

شاعر سوداني يمجد ذكرى أبي الطيب المتنبي

هو الشاعر محمد الأمين القرشي الحسيني وهو أحد أعلام الشعر العربي في السودان في العصر الحديث ولد عام ٨٩١: ولما شب عوده وترعرع ألحقه والده الفقيه القرشي بأحد المكاتب حيث حفظ القرآن الكريم وطالع كتب السيرة ، وتبحر في علوم الدين ثم التحق بكلية غوردون عام ١٩٠٨ وظل بها حتى عام ١٩١٣ ثم عين عاملا قضائيا في محاكم السودان الشرعية ثم رقي قاضيا في عدد من بلاد السودان . أما أبو الطيب المتنبي فأحد أعلام الشعر العربي في عصوره الذهبية الأولى ، ناصر سيف الدولة ودولة بني حمدان ثم قدم إلى مصر عام ٣٤٦ هـ ومدح « كافور الإخشيدي » فوعده بولاية مكث أربع سنوات في مصر طامعا فيها ، غير أن كافوراً لم يف بوعده فغادر المتنبي مصر وهو يتميز من الغيظ ونزل بلاد فارس حتى عرض له فاتك الأسدي في حملة من أصحابه وكان المتنبي قدهجا أخته فتغلب فاتك وقُتِل أبو الطيب عام ٣٥٤ هـ ففقدت بموته دولة الشعر ركنا ركينا من أركانها .

وقصيدة محمد الأمين القرشي يستهلها بقوله :

أبا الطيب اعذرني فانت كريم   وإن فؤادي بالخطوب كليم

ولو صغت من زهر السماء قصيدة   ودانت لقولي شهبها ونجوم

لما كنت إلا مهديا مثل قطرة   إلى البحر جاءت في الخضم تعوم

وهذه البداية التي استهلها محمد الأمين أشبه بتلك الديباجة التي كان يلجأ إليها شعراء العرب في مدح الملوك والخلفاء وذوي السلطان والصولجان فمديحهم لا يتعدى قطرة من بحر أوما إلى ذلك بالقياس إلى الممدوح ولكن الممدوح عند محمد الأمين ليس ملكا ولا سلطانا يفرض سلطته وجبروته على الناس إنما هو زعيم من زعماء

الشعر وأمير من أمراء البيان وهو لا يقل بحال من الأحوال عن الخلفاء الاقدمين وقد بين محمد الأمين منزلة المتنبي في الشعر العربي حين قال :

فتحت طريق الشعر سهلت طرقه وهـــذبته والصالحـــات تدوم
وكل بني الدنيا عيال عليـكمو فانت أب لهم وأنت زعيم
واستاذهم في مجلس أو بخــلوة تعلمهم ما أنتجته حـــلوم
وديوانك المعمور بالشعر معهد به للرجال العارفين عـــلوم
وروض نضير حافـــل بثماره يهب على الأجيال منه نسيم
يميل أولى الالباب حتى تخالهم نشاوى وما خمر هناك ذميم
ولـكن خمراً للقريض شرابه حلال وفي القرطاس منه نديم

و« محمد الأمين » في هذه الابيات يشير إلى مكانة المتنبي الأدبية بين نقاده ويقرر أحقيته في الفخر بشعره ويعتبره الرائد الأول للشعر موافقا إياه على ما اعتقده في نفسه من نباهة الذكر والانفراد بعلو الشأن وسمو المنزلة حيث يقول :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغني مغردا

وقال كذلك :

سيعلم الجمـــع ممن ضم مجلسنا بأنني خـــير من تسعى به قـــدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر القوم جراها ويختصم

ولا يلبث محمد الأمين بعد ذلك أن يعيب على أهل السودان تجاهلهم لشعر أبي الطيب ويدعوهم إلى مطالعته واستروح عبيره والاستمتاع بنفائسه ثم يشير بعد ذلك إلى خذلان كافور له وعدم منحه الولاية التي مناه بها وكان كافور الاخشيدي وعده بولاية فلما رأى تعاليه بنفسه وشدة زهوه لم يوله عملا وكان قد طلب منه ولاية

صيدا فلم يعطه إياها فعوتب فى ذلك فقال يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة مع كافور ؟ ولكن « محمد الأمين » لا يرتاح إلى حجة كافور وينطلق مدافعا عن المتنبي ساخطا على كافور ساخرا منه هازئا بحكمه ، معزيا شهرته فى التاريخ إلى أبى الطيب وإلى ما نظمه من شعر سارت بذكره الركبان .

ألم تك أولى منه بالملك انه   عليك اعتدى ان الزمان خصيم
أيقبل عقل أن كافور حاكم   عتل خصى جاهل وزنيم
يطاع له أمر بمصر ويزدهى   على الخلق من كبر وأنت عديم
فلا بأس أن جردت جيشا عرمرما   من الشعر تغزو ملكه وتروم
رفعت له ذكرا ولم يك نابها   وخلد فى التاريخ وهو غشوم

ويختم محمد الأمين قصيدتة بعد ذلك بأبيات فى الحكمة تذكرنا بما اشتهر به المتنبي من حكمة بالغة وخبرة بأحوال الزمان ثم يطلب له الرحمة فى مثواه الأخير :

فيا رحمة الله الجليل تنزلى   على قبره إن الاله رحيم
وكونى كامثال القوافى طليقة   فإن بها روحا هناك تديم

—*—

جيل جديد من الشعراء السودانيين

زعم بعض دعاة المدنية الحديثة أن زمن الشعر قد ولى وعهد الفن قد راح وأتت المدنية الحديثة بضجيجها وصخبها ولا محل فيها لبسمات الخيال وشطحات الشعر وانطلاقات الفكر وقد رد الشاعر فيكتور هوجو على هؤلاء الدعاة منذ حوالى قرن من الزمان بأن الشعر لا يمكن أن يموت أو يندثر وأنه ما دام بين الضلوع قلب يخفق وإحساس يضطرم ، ومادام بالسماء كواكب تتألق ونجوم تلمع وفى الرياض أطيار تصدح وبلابل تغرد فلابد أن يجد الشعر سبيله إلى الحياة وإلى الوجود .

ومن محاسن الصدف فى الأدب السودانى المعاصر أن نشأ جيل جديد من الشعراء يتأثرون بالمذاهب الأدبية الحديثة رومانسية ورمزية وواقعية وغيرها . وحاول هذا الفريق أن يتخذ من قراءاته المتصلة فى الجامعة أو غير الجامعة للآداب العالمية نماذج للشعر الرفيع ، ونذكر من هؤلاء الشعراء محمد مفتاح الفيتورى وجيلى عبد الرحمن وتاج السر الحسين وطنبل وغيرهم .

فإن هؤلاء الشعراء حاولوا أن يتجردوا من التقاليد الكلاسيكية البالية فى نظم القصيدة العربية وأضافوا إليها تجارب نفسية واضحة بعضها فى الحب وبعضها فى الألم والشكوى وبعضها فى الثورة على الأوضاع الفاسدة فى المجتمع أو ضد الظلم والطغيان فغدا شعرهم مفعما بشتى المشاعر زاخرا بمختلف الأحاسيس .

وها هو ذا الفيتورى ينفض عن نفسه الأثقال ويحاول أن ينفضها عن كاهل كل وطنى فى الشرق :

يا أخى فى الشرق فى كل سكن يا أخى فى الأرض فى كل وطن
أنا أدعوك فهـل تعرفنى يا أخاً أعرفه رغم المحن
إننى مزقت أكفان الدجى إننى هدمت جدران الوهن

لم أعد مقبرة تحكى البلى لم أعد ساقية تبكى الدمن
لم أعد عبد جمود لم أعد عبد ماض هرم عبد وثن
أنا حى خالد رغم الردى أنا حر رغم قضبان الزمن

وها هو ذا الشاعر جيلى عبد الرحمن يردد بعض أشعاره الوطنية فى ثورة تزعزع أركان النفوس وتهز عرش الجبابرة الطغاة .

لماذا — أبى — فى عروقى النشيد يمور دما عاصفا ساخنا
لماذا يؤرق تلك الليالى وكانت لظى راكداً آسنا
ويضرم قلبك مثل اللهيب وقد كان ياأبتى آمنا
وأنت ركزت على الأمانى وأنت عقدت على المنى
ولكنهم ياأبى قد أرادوا بأن استذل وأن أسجنا
ومن قبل قد كمموا شعبنا وبلوا المشانق من دمعنا
ليبنوا القصور ويبنوا الغنى وتذوى هنالك أشلاؤنا
وأقسم أنى لن أذعنا فما كنت ياأبتى لينا
وما كنت ياأبتى كافرا بشعبى بدينى بحقى أنا
وفى غدنا سوف يزهو الصباح رشيق الخطا مشرقا لينا

ولم تكن التجربة الوطنية هى التجربة الوحيدة لشعراء الجيل الجديد إنما كانت لهم قلوب كما تثور وتصخب تسكن وتهدأ وكما تكافح من أجل الحرية والاستقلال تعشق الحسن وتتعلق بأهداب الجمال فقال طنبل يصف جبلا على شاطىء دنقلة ويحكى ليلة عذبة من لياليه على الشاطىء الجميل .

جلسنا عشاء بقرب النهر وقد فضض الماء ضوء القمر
ونام على الرمل أطفالنا وغيرى انبرى لاهيا بالسمر
وماهم نفسى سوى منظر أثار بنفسى شتى الفكر
طلول شخصن باعلى الربى وفى صمتهن دروس العبر
لقد أطرقت وبها مسحة حكت سأم اليائس المنتظر

وفى موضع آخر يقول الشاعر سعد الدين فوزى متغنيا بجمال الطبيعة متذكرا وصال الحبيب :

كم سهرنا فى ضياء القمر
وغفونا عن سهام القدر
وقطفنا من ربيع العمر
من لذاذات الشباب النضر
ثم لم نحفل بنقد أو جمود
هذه الأزهار تزهو حولنا
إن هذا الليل يغرى مثلنا
وصفاء الكون قد أضحى لنا
وكنار الحب يشدو معلنا
هاهو الصفو فهل من مستزيد

وهكذا استطاع الجيل الجديد من الشعراء أن يصور تجاربه النفسية فى وضوح وجلاء بأسلوب عذب جميل ليس فيه تعنت القدماء . وخليق بهذا الجيل الجديد من الشعراء أن ينطلق فى ميدان الشعر ما شاء له الانطلاق حتى ينتج الروائع من الشعر والبدائع من الفن وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

*

الرومانتيكية في شعر الشابي والتيجاني

الشاعر الأول هو أبو القاسم الشابى أحد شعراء المغرب المشهورين والشاعر الثانى هو التيجانى يوسف بشير أحد شعراء السودان الخالدين وقد جمعت الشاعرين صفات متشابهة وملامح متقاربة دفعت أحد أدباء هذا العصر إلى أن يخرج كتاباً يضمنه وجوه الشبه بين هذين الشاعرين وهذا الأديب هو الأستاذ أبو القاسم محمد بدرى .

ووجوه الشبه بين هذين الشاعرين لدى المؤلف تتلخص فى أنهما عاشا فى قرن واحد وهو القرن العشرين وعاشا عمراً يكاد يكون واحداً فالشابى عاش من عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩٣٤ والتيجانى عاش من عام ١٩١٢ إلى عام ١٩٣٧ وقد نشأ كل منهما فى بيئة دينية محافظة من حيث التربية والتعليم وحاولا أن يطعما شعرهما بالثقافة الغربية ما استطاعا إلى ذلك سبيلا حتى أدركتهما علة واحدة وهى داء الصـــدر فماتا أنضر ما يكون الشباب وأجمل ما يكون العمر وأوسع ما يكون الأمل .

وقد أشار الكاتب إلى نزعة تجمع بين هذين الشاعرين وهى نزعة الحزن التى تكتنف أغلب شعرهما ولكن هذه الإشارة لم تكن إلا إشارة عابرة فى هذا البحث وعندى أن هذه السمة هى أبرز السمات التى تميز شعر هذين الشاعرين وتلحقه بالأدب الرومانتيكى الممتاز ومعروف أن النزعة الرومانتيكية التى سيطرت على الأدب الأوربى كان قوامها نزعة الحزن أو نزعة الملانكوليا أو مرض القرن كما كان يطلق عليه الفرنسيون فقال الفرد دى فينى «إنى أحب جلال الألم البشرى» وقال الفرد دى موسيه «المرء طفل معلمه الألم» وقال «لا شىء يسمو بنا إلى العظمة كما يسمو الألم» وكذلك كان الحال فى الأدب الإنجليزى فقد سيطرت روح الحزن والأسى على ملامح بيرون وشللى ووردز ورث وغيرهم ووجدنا هؤلاء الشعراء الرومانتيكيين تسود أشعارهم نغمة من التشاؤم والشجن وقد

كتب كارليل فى هذا المعنى يقول « سألت نفسى فيم ضجرك من هذا الوجود وفيم هياجك وفيم حزنك وفيم تمزيقك لفؤادك منذ أن كنت صبياً أليس ذلك لأنك غير سعيد . . ؟ ماذا يمنع أن يكون القدر قد كتب لك فى السجل القديم أنك ولدت لتشقى لا لتسعد ! وهل أنت إلا طير جارح يطير فى أرجاء الكون باحثاً عن طعام فتنفق فى ألم لأنك لا تجد ما يشبع نهمك .. ؟ اطو صحائف بيرون وافتح صحائف جوته » .

وهذه النغمة هى نفس النغمة التى نلمسها فى شعر الشابى أو التيجانى ولست أعنى بهذا أن الشابى والتيجانى سارا على نهج المدرسة الرومانتيكية وتعمقا فى دراسة الأدب الأوربى ولاسيما الشعر الرومانتيكى ، إنما أعنى أن الشعر يتدفق من معين واحد مهما اختلفت الديار وتناءت الأقطار ألا وهو معين الإنسانية الصافى الذى لا ينضب ونبع النفس الحية الذى لا يغيض . . ولكن مع هذا لا أستبعد أن يكون الشابى والتيجانى قد اطلعا على تراجم قصائد لبيرون أو شللى أو لامارتين أو الفرد دى موسيه أو غيرهم ، فتأثرا بشعر هؤلاء الشعراء الرومانتيكيين ولا سيما إذا لاحظنا أن القرن العشرين شهد منذ أوائله نهضة كبيرة فى نقل الآثار الأدبية الغربية إلى لغة العرب وكانت الصحف العربية والمجلات الأدبية بوجه عام تحرص كل الحرص على تزيين صفحاتها بروائع الأدب الغربى .

ونزعة الحزن هذه هى أبرز ما يميز شعر هذين الشاعرين . وهى من أهم مميزات الأدب الرومانتيكى الخالص . وقد ألم الكاتب بهذه النزعة إلماماً سريعاً ولكنه فى عجالته السريعة حاول أن يرسخ الفكرة فى الأذهان فتمثل يقول الشابى :

آه توارى فجرى القدسى فى ليل الدهور
وفنى كما يفنى النشيد الحلو فى صمت الأثير
وأرى الأباطيل الكثيرة والمآثم والشرور
وتصادم الأهواء بالأهواء فى كل الأمور

ومذلة الحق الضعيف وعزة الذل الحقير
وأرى ابن آدم سائراً فى رحلة العمر القصير
ما بين أهوال الحياة وتحت أعباء الضمير
متسلقاً جبل الوجود الوعر كالشيخ الضرير
دامى الأكف ممزق الأقدام مغبر الشعور
مترنح الخطوات ما بين المزالق والصخور
ماذا جنيت من الحياة ومن تجاريب الدهور
غير الندامة والأسى والبؤس والدمع الغزير

ولكن هذه القطعة لا تصور النزعة الحزينة فى أعلى مراحلها ، إنما توجد للشابي قطع أخرى تنضح بالألم وتنطق بالأسى وتطفح بالدموع كقوله :

لم أجد فى الوجـــود الا شقاء سرمديا ولذة مضمحـــلة
وورودا تموت فى قبضة الأشوا ك ما هـذه الحياة المملة ؟ !
وأمانى يغرق الدمع أحـــلاها وتفنى يـد الزمـان صداها
وأناشيـد يأكل اللهب الدامى مسراتها ويبـــقى أساهـــا
سأم هـــذه الحياة معـــاد وصباح يكر فى إثر ليـل
ليتنى لم أفـد إلى هـذه الدنيا ولم تسبح الكواكب حولى
ليتنى لم يعانق الفجر أحلامى ولم يلثم الضياء جفـــونى
ليتنى لم أزل كما كنت ضوءاً شائعا فى الوجود غير سجين

وقال يصف شعره :

أنت يا شعر فلذة من فؤادى تتغنى وقطعة من وجـــودى
فيك ما فى جوانحى من حنين أبدى إلى صميم الوجـــود
فيك ما فى خواطرى من بـلاء فيك ما فى عواطفى من نشيد
فيك يبدو شقاء نفسى عبوسا شاحب اللون عارى الأجلاود
كللته الحيـاة بالحزن الدامى وغشتـه بالرياح السود . .

وقال كذلك يبث صاحبه آلام نفسه وأشجان قلبه :

صاح هذى الحياة أنشودة الحزن فرتل على الحياة نحيبي
إن كأس الحياة مترعة بالدمع فاسكب على الحياة صبيبي
إن وادى الظلام يطفح بالهول فما أبعد ابتسام القلوب
لا يغرنك ابتسام بنى الأرض فخلف الشعاع لذع اللهيب
أنت تدرى أن الحياة قطوب وخطوب فما حياة القطوب ؟

وتأمل أشعاره الحزينة التى تتدفق كقطرات من الدمع وكأنات القلب :

سئمت الحياة وما فى الحيا ة ولما تجاوزت فجر الشباب
سئمت الليالى وأوجاعها وما شعشعت من رحيق وصاب
فحطمت كأسى وألقيتها بوادى الأسى وجحيم العذاب

هذا عن نزعة الشابى الحزينة ، أما نزعة التيجانى فإنها لا تقل عنها لوعة ولا حزنا فقد كان التيجانى رقيق المشاعر مرهف الحس وكانت تسيطر عليه نزعة حزينة فى بعض الأحيان ولعل ذلك يرجع الى أنه كان يحمل بين أطوائه نفسا وثابة وروحا تواقة الى المجد والخلد فى وقت ساد فيه الجمود كما أن العلة التى ألمت بصدره حدت من حريته وكبلت من انطلاقاته فرانت عليه كآبة موجعة من الهم والقلق فلا غرو أن يقول :

هى نفسى من الندى قطرات لم تنلها يد الزمان بخلط
هى من صفحة الشباب قوى تز خر بالحب أو تموج بسخط
هى قسطى من السماء فما أضـ يع فى العالم الترابى قسطى

وقال كذلك فى رنة حزينة ونغم أسيف معبرا عن القداسة التى يجب أن يكنها العالم تجاه الشاعر بعد موته وعن الأسى الذى يجب أن يستشعره بفقده :

وضع له الأصداف قبرا فما يستبطن الدرة غير الصدف
واسكب على قبر النبوغ الدما وانثر على قبر الشباب الطرف

ولقد امتزجت نزعة الحزن عند الرومانتيكيين بحبهم للطبيعة وفنائهم فيها وقد كان لكتابات روسو أثر بالغ فى تكوين شعراء الطبيعة من أبناء المدرسة الرومانتيكية فى كل دول أوربا . ولم يكن الرجوع إلى الطبيعة الذى دعا روسو إليه رجوعا إلى الطبيعة فى السلوك أو فى الأخلاق أو فى فهم الحياة فحسب إنما كان أشبه شيء بدين جديد أو حركة صوفية اشترك فيها عامة رجال الفكر الأوربى فى عصر الثورة الفرنسية وكان كهنتها وردزورث فى انجلترا وجوته فى ألمانيا وقد تاه وردزورث بين بحيرات اسكتلنده وجبالها ليقرأ معانى الألوهة فى الزهرة وفى الشجرة وفى مياه الغدير وقال للناس إن الطبيعة تشفى الإنسانية من آلامها وتخفف من أوجاع القلوب وتاه بيرون وشللى بين بحيرات إيطاليا حيث ترنما بأعذب أشعارهما وأجمل انتاجهما الأدبى وقد ظهرت عند أبى القاسم الشابى ظاهرة النزوع إلى الطبيعة واضحة جلية كما ظهرت كذلك عند التيجانى حينما أصبحا شاعرين رومانتيكيين دون أن يلتمسا السبيل إلى الرومانتيكية فهما يلجآن إلى الذاتية ومعروف أن الرومانسية ذاتية والكلاسيكية موضوعية وهما ينزعان إلى طابع الحزن والتشاؤم ويميلان إلى الحدة فى الإحساس والعنف فى التعبير عن المشاعر وهذه السمات كلها من مظاهر الرومانتيكية ، قال الشابى فى « مأتم القلب » :

مـات حبي

مـات قلبي

فاذرفى يا مقلة الليل الدرارى عبرات

فوق قلبي فهو قد ودع أوجاع الحياة

بعد أن ذاق اللهيب

واندبيـــه

واغسلـــيه

بدموع الفجر من أكواب زهر الزنبق
وادفنيه بجلال فى ضفاف الشفق
ليرى روح الحبيب

وعندما يسفر الصباح على الشابى يحاول أن ينسى أشجانه ويترك أتراحه وينظر إلى الحياة نظرة جديدة مشرقة ولكن أنى له هذا ؟ . .

اسكتى يا جراح   واسكنى يا شجون
مات عهد النواح   وزمان الجنون
وأطل الصباح   من وراء القرون
فى فؤادى الرحيب   معبد للجمال
شيدته الحياة   بالرؤى والخيال
فتلوت الصلاة   فى خشوع الظلال
وحرقت البخور   وأضأت الشموع

أما التيجانى يوسف بشير فإنه يقدس الجمال ويهيم فى حسن الطبيعة وفتنتها فيقول :

إيه طير الشباب من صاغ هذا الـ   ـحسن فى زهوه وفى استكباره
من أذاب الضياء فيه ومن نغـ   ـم شجو الهوى على أوتاره
من رمى ما أصاب من صور الفتـ   ـنة من زرها على ازراره
والفتور الذى بعينيك من مو   ه سحر الحياة فى أقطاره
نظرة كالصلاة زلفى إلى الله   له وقربى لعزه واقتداره

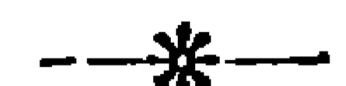
كما يقول التيجانى كذلك :

كل ما فى الكون يمشى فى حناياه الإله
هذه النملة فى رفتها رجع صداه
هو يحيا فى حواشيها وتحيا فى ثراه . .

وقال كذلك :

وحبوناك ما يزيد بالغز وضـــوحاً وأنت تفتا صـــعبا
وذهبنا بمـا يفسر معناك بعيدا وأنت أكثر قربا
من ترى وزع المفاتن يا حسن من ذا أوحى لنا أن نحبا
من ترى علم القلوب هوى الحسن وقال اعبدى من السحر ربا

هذه هي مظاهر من الألم عند الشابي والتيجاني وعندى أنها من أبرز اللامح التي تميز هذين الشاعرين كما تصور المذهب الرومانتيكي أصدق تصوير وقد مر بها المؤلف مرورا عابرا سريعا ولـكنه مع هذا استطاع في هذا الـكتاب أن يثير كثيرا من الإعجاب وأن يتيح للنفوس ســاعة أو بعض ساعة في قراءة بحث طريف .



أثر الثورة المصرية في السودان

إنه لما يؤكد الروابط ويوطد الأواصر بين مصر وأهل الجنوب أن جميع الحركات الوطنية ودعوات الحرية التي يقوم بها أبناء مصر يكون لها في السودان أثر قوي وصدى عظيم فيهب أبناء السودان عن بكرة أبيهم يجاهدون في سبيل الاستقلال والحرية وتحرير بلادهم من ربقة الاستبداد والاستعباد. ففي عام ١٨٨١ قام أحمد عرابي بحركته الوطنية ضد تدخل الأجنبي وافتئاته على حقوق البلاد ومن أجل تثبيت الحكم الدستوري في البلاد وضمان مبادىء الحرية والعدل والمساواة للجميع بعد ما كانت الامتيازات تعطى لطبقة خاصة وكانت الرتب العسكرية الكبرى في الجيش محفوظة دائما للضباط الأتراك ولا يمنح الضباط المصريون إلا الرتب الصغرى التي لا تتجاوز القائمقام. وكان يعاون « عرابي » في هذه الحركة من الضباط: علي فهمي الديب قائد الحرس وعلي الروبي وعبد العال حلمي أمير الآلاي السادس السوداني وغيرهم من طليعة الضباط. فكان لقيام الحركة في مصر وانتشار الآراء الثورية وإعلان العصيان ضد الخديوي ومعارضة الأجانب أثر لابد أن يكون قد تسرب إلى السودان ومهد السبيل لحركة المهدي ضد الاحتلال الأجنبي، حتى أنه لما تعددت انتصارات المهدي عولت الحكومة الإنجليزية على ألا ترسل من قبلها جنديا واحداً للدفاع عن السودان وأبلغت هذا القرار معتمدها الجديد (ايفلن بارنج) ليشير على الحكومة المصرية بإخلاء السودان. غير أن الحكومة المصرية كانت ترى أن ضم السودان إلى مصر ضرورة تحتمها الروابط الاقتصادية والطبيعية ووشائج الدم وصلات النسب. ولم يسع شريف باشا سوى الاستقالة احتجاجا على تدخل انجلترا. وتألفت عام ١٨٨٤ وزارة نوبار باشا وعليه تم تنفيذ سياسة إخلاء السودان.

وعندما قامت ثورة عام ١٩١٩ ضيقا بالموظفين الإنجليز واطراد زيادة عددهم في مصالح الحكومة وانتشارهم في معظم الوظائف الكبرى .. ومن أجل الحرية

والاستقلال والتحرر من نير المحتلين . . وعلى أثر القبض على أربعة من كبار الزعماء في مصر وهم سعد زغلول وإسماعيل صدقي ومحمد محمود وحمد الباسل ونفيهم إلى جزيرة مالطة ، نفخ في الصور وهب الشعب من كل صوب هبة واحدة وتآلفت عناصر الأمة العربية المصرية من أقباط ومسلمين ويهود على بذل كل مرتخص وغال في سبيل الانقضاض على الإنجليز . وأخذت هذه الحركات تتسرب إلى السودان شيئاً فشيئاً تثير نفوسهم الأبية وتحرك ضمائرهم النقية التي تأبى الذل والضيم . وقام الشباب بحركته الوطنية ضد الاحتلال البريطاني وظلت النفوس تتحسس ما فيها من حنق وسخط على المحتلين حتى اشتعلت نار الثورة في السودان عام ١٩٢٤ ، وقامت جمعية اللواء الأبيض بمقاومة الاستعمار وأبلى أعضاؤها بلاء عظيما في سبيل تحرير البلاد ، واتهم الضابط على عبد اللطيف بتهمة التحريض على الثورة والتآمر لقلب نظام الحكم ، وحكم عليه بالسجن والتعذيب . غير أن هذه الأساليب التعسفية الصارمة والطرائق الهمجية الجائرة لم تفت في عضد الشعب السوداني إنما ظل يكافح ويناضل بالدم وبالدموع في سبيل استرداد حريته المسلوبة ووحدة وادي النيل .

ولما قام الجيش الباسل قومته الوطنية المجيدة في وجه الفساد والطغيان وتم له بعون الله النصر المبين الحاسم في سرعة خاطفة ليس لها مثيل واتسمت الحركة بالتضحية وإنكار الذات والروح الوطنية العالية كان لكل ذلك في السودان أثر جسيم وصدى عظيم إذ رحبت به جميع الهيئات والأحزاب السودانية وانهالت البرقيات وتتالت الرسل بالتهنئة والتأييد .

وقد أزالت هذه الحركة المباركة من نفوس السودانيين كثيرا من المخاوف ومن الشكوك التي كانت : تتنازعهم لتدخل الملك في السياسة واضطراب نظام الحكم في مصر وفساد الإدارة في البلاد : وكتبت الجرائد السودانية تؤيد وثبة الجيش الفتي الناهضة .

هذا وقد سافر السيد الرئيس جمال عبد الناصر إلى السودان حيث قوبل

بحفاوة منقطعة النظير من الأهالى مما يثبت ما بين الشعبين الشقيقين من أواصر المودة والتقدير .

وقد أعلن الرئيس عبود فى أكثر من مناسبة عن العلاقات الطيبة التى تربط بين البلدين برباط قوى متين لا تبلى أواصره .

وعند ما تعرضت البلاد للعدوان الثلاثى الغاشم على بور سعيد عام ١٩٥٦ استنكرت الصحافة السودانية أيما استنكار هذا العدوان السافر وخرجت الصحف تكيل التهم إلى الدول المعتدية .

كما أعلنت أن إسرائيل جسر للاستعمار ولن يهدأ بال العالم العربى حتى يتخلص من هذه الشوكة التى تقض مضاجعه .

وقد كان مؤتمر القمة الذى عقد فى مدينة أديس أبابا فى شهر مايو عام ١٩٦٣ مجالا لتبادل الرأى ووجهات النظر بين الأقطاب الإفريقيين ومنهم الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس إبراهيم عبود .

وقد اتفقت وجهات نظر الأقطاب فى شتى المسائل السياسية ومنها رفض الاستعمار فى مختلف صوره وأشكاله ، والإيمان بإرادة الشعوب فى تحقيق كرامتها وتوجيه مصيرها .

ومن المنتظر أن تزداد الروابط بين الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية السودانية على الأيام قوة وثباتا ، لإيمان الشعبين الشقيقين بأن القومية العربية هى المرفأ الأمين الذى يقى العالم العربى من الاستعمار وأذناب الاستعمار .

—*—

الغزل في الشعر السوداني

كان الشعراء الجاهليون يبدءون قصائدهم ومعلقاتهم بذكر الغزل والنسيب والتشبيب والوقوف على الأطلال والدمن وبكاء الأحبة وما إلى ذلك وقد شاعت هذه الطريقة فى شعر الجاهليين كما شاعت فى شعر الشعراء الإسلاميين حتى جاءت مدرسة أبى نواس الشعرية فأنكر على الشعراء القدماء بكاء الاطلال والدمن وبدء القصائد بالغزل والنسيب وطلب من الشعراء أن يستهلوا قصائدهم بذكر الخمر ومجالسها وأنسها ظانا بذلك أنه يستطيع أن يبعث التجديد فى الشعر العربى ولكن دعوة أبى نواس وأتباعه لم تلق الذيوع المنتظر فلم يلبث الشعراء أن عادوا إلى عادتهم القديمة وذكر الغزل والنسيب وبكاء الأطلال والدمن فى مطالع قصائدهم والغريب أننا إذ نقلب النظر فى ديوان شوقى أمير الشعراء أو حافظ إبراهيم شاعر النيل أو غيرهما من شعراء العصر الحديث نجد هذه العادة لا تزال متبعة فى أغلب القصائد ولسنا بصدد ذكر الأثر الجميل والوقع الطريف الذى يتركه الغزل فى مطالع القصائد فى النفوس إنما نحن بصدد تسجيل ظاهرة شاعت فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث .

ومن يتصفح دواوين الشعراء السودانيين فى العصر الحديث يجد هذه الظاهرة واضحة جلية ولا غرو فى هذا فالسودان يتطلع دائما إلى مصر والشعراء السودانيون يحاولون دائماً أن ينهجوا نهج الشعراء المصريين وأن ينسجوا على منوال الأدب المصرى . قال الشيخ محمد عمر البنا فى مطلع قصيدة يمدح بها الأمير الزاكى :

أبداً يؤرقنى عبير شذاك	ويزيدنى قلقاً دوام جفاك
ويردنى من حالة العقلا إلى	حال الخبال تذللى وإباك
ويزيدنى طربا وحسن مسرة	برق تألق من ضياء سناك
ياربة الحسن الذى فتن الورى	أكذا يكون جزاء من يهواك
عذبتنى بالصد والهجران ما	ذنبى سوى أنى أروم لقاك

وقال السيد محمد سعيد العباسي من قصيدة في الشكوى :

قفوا في ربى كانت تحل بها سلمى ... فإني أرى هجران تلك الربى ظلماً
أسائل رسم الدار أين ترحلوا ... وهل أفصحت يوما لسائلها العجما
منازل كانت للبدور منازلا ... فأضحت بريم الوحش من بعدها تسمى

وهكذا نجد أغلب الشعراء السودانيين يستهلون قصائدهم بذكر الغزل والنسيب والوقوف على الأطلال كما كان يفعل الشعراء الجاهليون بل إن هناك ما هو أكثر من هذا وهو أن أكثر صورهم وتعابيرهم وخيالاتهم مستمد من الأدب العربي القديم فالمرأة هي الظبية وهي المهاة وهي القمر ، والخصر كالخاتم والثغر كالدر والقوام كقضيب البان والعجز ككثيب الرمل وما إلى ذلك .

قال عبد الله محمد عمر البنا :

برزت وقد تبلت فؤادي زينب ... حسنا تصبي للحليم وتسلب
فالخصر واه متعب كمحبها ... والردف مثل الشوق موه متعب
هيفاء قد عقد الحياء لسانها ... وغدا الدلال لها رقيباً يحجب
ترنو فترسل للعقول صوارما ... وتميس في ثوب الجمال وتسحب
واللفظ مثل السحر يستلب النهى ... كالخمر إلا أنه لا يشرب
والشعر مثل الليل إلا أنه ... لم يبد فيه لمن تأمل كوكب
والوجه مثل الشمس إلا أنه ... تلقاء ليل الشعر ما إن يغرب
هي كالحياة لمدنف أو كالحيا ... لممحل لكنها هي أعذب

فمن ينعم النظر في هذه الأبيات يجد الشاعر يعطينا حلقة متصلة من التشبيهات والاستعارات أكثرها مستمد من الخيال العربي القديم بل إن الشاعر يستهل قصيدته بذكر اسم محبوبته كما كان يفعل الشعراء الأقدمون في ذكر ليلى ولبنى وهند ودعد وزينب . كذلك فالنظرات سيوف صوارم واللفظ سحر كالخمر والشعر كالليل والوجه كالشمس وكل هذه معان طرقها الشعراء العرب قديما حتى أصبحت

من المعانى المستهلكة وأصبحت أشبه شيء بالعملة القديمة غير المتداولة التى طال بها الزمن وانقضى عليها الأمد ولكننا مع هذا لا ينبغى أن ننكر أسلوب الشاعر الذى استطاع أن يصوغ من هذه المعانى المتداولة أبياتا رقيقة لا تخلو من جمال وروعة .

وأمامى الآن قصيدة أخرى للسيد أبى القاسم أحمد هاشم لا تخرج معانيها عن القصيدة السابقة ولكن الشاعر صاغها فى أسلوب آخر طريف لا يقل روعة ولا فتنة عن أسلوب البنا :

بسمت عن در ثغر مستبين ... منع البدر ضياه أن يبين
وبدت للورد فى خد نضير ... فراح الورد مصفر الجبين
خطرت فى قدها فالبان فى ... خجل يضحك منه الياسمين
ورمت باللحظ منها فأصا ... بت به حبات قلوب العاشقين
فتراهم من جراحات اللوا ... حظ ما بين قتيل وطعين

ولا أظن أن أحدا يخالفنى فى أن هذه المعانى التى تضمنتها هذه القصيدة ساذجة بسيطة مطروقة وإن كان هناك فضل للشاعر فيها فإنما الفضل يرجع إلى أنه استطاع أن يخلق منها أسلوبا رقيقا ووزنا رخيما . .

وقد استطاع الشاعر عثمان هاشم أن يستغل وصف الثغر بالكأس والريق بالرحيق فينظم أبياتا طريفة يقول فيها :

هذى الحسان وذى كئوس الراح ... فاشرب وغن اليوم لى يا صاح
واضرب على عود السرور مرددا ... صوت الغناء بريشة الأفراح
فالآن قد طاب الشراب وقد بدت ... بنت الكروم تدب فى الأرواح
فدع المدير يكف عن كاساته ... ويطوف لى بالريق لا بالراح

فالشاعر هنا يجمع بين أدب الخمريات وأدب الغزل إلا أنه لا يقصد سوى التمتع بقرب محبوبته فهى عنده كبنت الدنان تسلب عقله وتخلب فؤاده وتبعث فى نفسه النشوة والسحر وفى هذا قال السيد محمد السيد أحمد :

نشوة الخمر فيك خمر المعاني لا عصير الكروم بين دنانه
تقطف العين من محياك زهرا زاهي اللون فهي قيد جنانه
رب خمر أضل منها وسمعي يتعاطى الكئوس من ألحانه
تدع النفس بالترنم سكرى وحلال السلاف من أجفانه

وقد امتزج الغزل فى الشعر السودانى عند كثير من الشعراء بمباهج الطبيعة ومرابع الفتنة ومهود الجمال فقد أوحت الطبيعة الساحرة إلى الشعراء بالحب ، فأخذوا يلتمسون الروابى الخضر . . والخمائل الملتفة . . والجداول المنسابة . . والأزاهير اليانعة . . والورود المشرقة . . قال التيجانى يوسف بشير فى قصيدته الخالدة « فى الوحى » :

ها هنا هيأ الهوى لك ملكاً قمرياً على عروش الأزاهر
دولة من مواكب النور حفت عالماً من عرائس الشعر زاهر
دولة لا تزال من قضب السر يحان تبنى صوالجا ومنابر
يصنع القلب للهوى من معانى العطر فيه مالا تصوغ الأزاهر

وقد امتزج الشعر الشعبي فى الغزل بكثير من مفاتن الطبيعة كقصيدة الشاعر السودانى سيد عبد العزيز « يا أنة المجروح » التى جاءت حافلة بوصف مظاهر الطبيعة الجميلة وكذلك جاءت قصيدة « الحر والأحلام يا جميل » للشاعر القومى مصطفى بطران .

وقد حاول بعض الشعراء السودانيين أن ينظموا القصائد الغزلية فى وزن جديد يخالف الأوزان المعروفة لقصائد الشعر العربى فنظموا فى أوزان الموشحات التى عرف بها الشعر الأندلسى ، ومعروف أن هذه الأوزان الجديدة قد خلقتها الحياة الاجتماعية الجديدة فى الأندلس ومظاهر الترف والمدح واحتياج الناس إلى التغنى بالأشعار الرقيقة والأوزان القصيرة والقوافى المختلفة حتى يكون ذلك أوقع

في النفس وألذ للسمع وأدعى إلى التظرف ، فابتدعوا من أوزان الشعر وقوافيه مالم يكن عند أهل الشرق وخرجوا عن الأوزان المعروفة والقوافى المألوفة ولم يلتزموا فى أشعارهم قافية واحدة ولا وزناً واحداً وقد برز فى هذا الميدان فى الأندلس ابن سهل الإشبيلى ولسان الدين بن الخطيب والأعمى الطليطلى وأول من اخترع اسم الموشحات مقدم بن معافر العزيزى وأخذ عنه أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . وهذه الأوزان الجديدة — أوزان الموشحات — شاعت بين كثير من الشعراء السودانيين ولا سيما فى شعر الغزل ، كالتيجانى يوسف بشير والسيد صالح عبد القادر الذى يقول :

لا تقل صدا فما لى جلد ودع اللوم فقلبى لا يعى

وحبيب مر بى ما اكترثا . . خيب الظن وعهدى نكثا . . وبقلبى فى الهوى قد عبثا

فبكى لى الناس مما أجد

وبكت أهل السموات معى

أزهد الصبر وقد أوهى القوى . . وبنار الوجد أحشائى كوى . . بعد أن كان يساقينى الهوى

بات عنى معرضا يبتعد

وأنا بت شديد الولع

أولع القلب وهما أورثا . . فبكى اللائم واللاحى رثى . . حدث الناس وماذا حدثا

قال لا وصلا لدينا يجد

فاجزعى يا نفس أو لا تجزعى

وقد امتزج الغزل فى الشعر السودانى عند بعض الشعراء بنفحات صوفية وخطرات ربانية ووجدوا فى صور الجمال ومواضع الفتنة تقديساً لقدرة الخلاق العظيم وآية على حسن خلقه وإبداعه فما جمال الوجوه وما سحر العيون وما تناسب

الأعضاء وتناسق الأجسام إلا آية من الآيات الربانية ونغمة من النغمات الإلهية . .

وفى ذلك يقول التيجانى :

حـرت ما الحب ما الهـوى ما التعـا

بـير اللـواتى يـبن عن أسراره

نظـرة كالصـلاة زلـفى إلى الله

له وقـربى لعـزه واقتـداره

هذه خطرات حول الغزل فى الشعر السودانى وإنها لخطرات سريعة أرجو أن تـكون مؤدية للقصد .

—*—

بين الأمثال المصرية والسودانية

لكل أمة من الأمم تراث عظيم من الأدب الشعبي تعتز به وتحافظ عليه وتتمسك به على مر الأيام ومن هذا التراث كثرة الأمثال الدارجة والفصيحة التى انتقلت من فم إلى فم ، من الشيوخ إلى الشباب ومن الماضى إلى الحاضر حتى أصبحت تجرى على كل لسان ويتغنى بها الصغير والكبير .

والأمثال جمل رصينة جمعت بين الإيجاز والبلاغة وإصابة المعنى وحسن التشبيه وقد أطلقت على حادثة معينة أو قصة معروفة ثم وجدت فى حوادث الأيام مايشابهها ومن خطوب الدهر ما يماثلها فانطلقت ألسنة الناس تحكيها . وقد جمعت الأمثال العربية فى كتب شتى مثل كتاب الأمثال للميدانى غير أن هذا الكتاب ضم أمثال العرب جميعاً على اختلاف قبائلهم وتنوع بطونهم بدون نظر إلى العصور التاريخية ومن ثم كان يضم أمثال العصر الجاهلى مع أمثال العصر الإسلامى من غير تبويب ودون ترتيب .

وقد قام الأستاذ عبد الغنى حسن بدور كبير فى تبويب الأمثال العربية وترتيبها مع أحد زملائه فى كتاب أطلق عليه أمثال العرب ويضم نخبة من الأمثال العربية تزيد على مائتين وخمسين مرتبة ترتيباً هجائياً . وبعد إيراد النص يشرح المؤلفان المثل بعبارة صحيحة واضحة ويوردان مصادره ومضاربه التى رتبت ترتيباً هجائياً ليتيسر للقارئ أن يقع على المثل وموضوعه .

ومن الأمثال العربية المشهورة قولهم : الصيف ضيعت اللبن ، القافلة تسير والكلاب تعوى ، كل فتاة بأبيها معجبة ، كل الصيد فى جوف الفرا ، عند جهينة الخبر اليقين ، بلغ السيل الزبى ، أول الشجرة النواة ، إن غداً لناظره قريب ، تجوع الحرة ولا تأكل بثديها . . وما إلى ذلك .

وليست الأمثال كلها موضوعة باللغة العربية الفصيحة ، إنما هناك أمثال

موضوعة باللغة العامية فى مصر والسودان تعتبر تراثاً نفيسا من الأدب الشعبى الرفيع وفى مصر يقولون : « امشى سنة ولا تخطى قنا » « وايد على ايد تسكبر » « وجاور السعيد تسعد » « والرغيف اللى يلمع للصاحب اللى ينفع » « والحيطان لها ودان » « وباب النجار مخلع » « والبطران سكته قطران » « واللى يعيش ياما يشوف » .

وكل هذه الأمثلة لها دلالات نفسية عظيمة وتكمن فيها الموعظة الحسنة ويتراءى فيها الإرشاد القويم وتعبر عما يجيش فى النفس الإنسانية من خواطر صادقة ليس فيها كذب ولا رياء وليس فيها تزويق ولا تنميق .

ويمتلىء السودان الحبيب بكثير من الأمثال السودانية باللغة الدارجة التى تحمل الحكمة البالغة والغاية الرفيعةومثال ذلك قولهم : « الإبرة ماتشيل خيطين والقلب ما يسع اتنين » « وإبليس ما غاب عن أحد » « وتربى كلبك يعضك » « والبصل كل ريحته واحدة » « وحضرت الأكول وغابت العقول » « وايد الحر ميزان » « ونصيبك يصيبك » « والرضاعة هينة والفطامة قاسية » « والضيف يجى برزقه » .

وهذه الأمثال السودانية تنتشر فى السودان وفى صعيد مصر بشكل ملحوظ وقد تكون ذات أسس سودانية بحتة كما قد تكون ذات أسس مصرية ، غير أنها انتقلت بين القطرين مع القوافل والمسافرين أو مع التجار أو نحو ذلك .

إن السودان أرض خصبة تحتاج إلى كثير من الرعاية والعناية حتى تنتج أطيب الثمرات والخيرات كما أن السودان حافل بتراث أدبى رفيع يحتاج إلى شىء من الدراسة والبحث والاستقصاء . وإن قليلا من الجهد فى هذا الميدان كفيل بأن يضع الأمور فى نصابها ويحرك النهضة الثقافية فى البلاد ويخرج لنا تراثا قيما نفيسا فى الأدب العربى الفصيح والأدب الشعبى الرفيع والأمثال السودانية العذبة التى تجمع بين السهولة والإيجاز مع حلاوة المعنى والإعجاز .

وقد أخرج الأستاذ نعوم شقير منذ سنوات بعيدة كتابا جمع فيه طائفة كبيرة من الأمثال الشعبية فى مصر والسودان والشام . وهو فى هذه الناحية أخص من كتاب الأستاذ عبد الغنى حسن ، وقد خصص لكل قطر من هذه الأقطار قسما خاصا غير أن الكتاب لا يضم من الأمثال فى السودان سوى القليل الذى أتيح للمؤلف أن يجمعه . ونحن نأمل أن يقوم أحد الباحثين السودانيين بهذا العمل العلمى الجليل مع دراسة لهذه الأمثال ومحاولة للوصول إلى مصادرها الأولى حتى لا يجد فيها دارسها أو قارئها شيئاً من الصعوبة أو العسر وإنا لذلك لمنتظرون .

رحلة إلى السودان

من الكتب الطريفة التى ضمت إلى المكتبة العربية حديثاً وتستحق التنويه والتسجيل وتتصل بالدراسات السودانية اتصالا وثيقاً ذلك الكتاب الذى أخرجته مجلة الطباعة منذ أمد غير بعيد وهو كتاب « رحلة إلى السودان » الذى كتبه الأستاذ محمد شاهين حمزة. وكتب الرحلات تراث أدبى معروف فى الآداب العالمية جميعاً فالكاتب أو الشاعر قد تتاح له الفرصة أن يرحل إلى بعض الأقطار والأمصار ثم يحدث أن يسجل مشاهداته فى هذه الرحلة أو نتائج هذا السفر فى كتاب خاص ينشره بين الناس مثل كبلنج الانجليزى الذى زار الشرق واعتقد أن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ، ومثل لامارتين الفرنسى الذى سحرته الطبيعة فى الشرق وبهره الجمال فى الشرق فأخرج ديوانه (الشرقيات) ، ومثل جوته الألمانى الذى جاس بين ربوع الشرق ثم طلع على الملأ بالديوان الشرقى للمؤلف الغربى ومثل رفاعة رافع الطهطاوى الذى رحل إلى باريس وشاهد مدينة النور فأخرج تحفته الطريفة (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ..)

ومن كتب الرحلات ما يكون أقرب إلى التسلية والتلهية منه إلى أى شىء آخر فإذا به يثير اللذة والمتعة ويبعث على البهجة والانشراح ولا يرجو سوى ذلك شيئا ، أما كتاب الأستاذ حمزة فليس من هذا النوع . وليس معنى هذا أن كتابه لا يبعث بهجة أو انشراحا ، فهو يسعى إلى ذلك جميعاً ولكنه يضم قبل ذلك كله وبعد ذلك كله لفتات اقتصادية حيناً ولفتات اجتماعية حيناً ولفتات سياسية حينا ، ويشيع فيه الإخلاص للسودان والحرص على مصلحته من أوله إلى آخره وفى كل فصل من فصوله .

وقد أتيحت هذه الرحلة للأستاذ محمد شاهين حمزة وتمت فى ظل الحركة المباركة والثورة الكبرى ويذكر المؤلف أنه قام بجولة قصيرة إلى السودان

عام ١٩٤٠ ولكن هذه الرحلة لم تشف غليله ولم تبل صداه فآثر أن يكرر الزيارة وأن يشاهد السودان فى ظل العهد الجديد .

ولشد ما كان يحرص المؤلف على زيارة السودان ولشد ما كان يدعو أقرانه فى مصر إلى زيارة السودان ويعتقد أن الحديث عن السودان دون زيارته عبث لا طائل تحته .

وقد ذكر المؤلف المعادن التى يشتهر بها السودان وقال : الذهب كثير فى السودان . إنه فى شنقول جنوبى سنار ويعرف بالذهب السنارى وهو موجود كذلك فى جبال النوبة بكردفان وفى غيرها من المناطق . ويوجد فى السودان الحديد والنحاس والرصاص والزمرد وهذه المعادن هى الأساس فى وجود صناعات عدة ينبغى أن تزدهر فى ربوع السودان وتعمل على الانتعاش الاقتصادى فى أرجاء الوادى .

ويضيف المؤلف إلى ذلك قوله : إن السودان غنى بالصمغ وبالنوع الممتاز منه ومنه صمغ الهشاب الذى يشتهر بلونه الشفاف المائل إلى الصفرة ومنه النوع الذى أثر فيه المطر قليلا فأصبح لامعاً كالزجاج وإن كان هشاً قابلاً للكسر ، هذا الصمغ تنتج منه السودان ٨٠٪ و٨٥٪ من محصول العالم ومن الواجب أن يستثمر استثماراً طيباً يعود على البلاد بأطيب الخيرات .

والسودان غنى بالحيوانات الزراعية التى يمكن أن تقوم عليها صناعات عدة مزدهرة وفى السودان نبات البردى وهو الذى صنع المصريون القدماء من رءوس سيقانه باقات الزينة والحصر والحبال والصناديق وصنعوا من لب سيقانه طعاماً ودواء .

وإلى جانب هذه اللفتات الاقتصادية العظيمة التى زخر بها كتاب (رحلة إلى السودان) وجدنا لفتات أخرى لا تقل عنها خطراً ولا أهمية لأنها تتصل بنواحى الحياة العامة وأعنى بها اللفتات الاجتماعية .

فهو يتحدث عن التعليم فى السودان ويرجو له الانتشار على أوسع نطاق

وأكبر صورة . وهو ينادى بضرورة إنشاء دار كبيرة للكتب فى السودان تكفى حاجة المطالعين وتكون فى مكان بارز وبقعة هامة حتى يسعى إليها السودانيون من كل صوب . ويرى أن فرع دار الكتب المصرية فى مبنى الخبير الاقتصادى بالخرطوم لا يفى بالغرض المنشود فى الترغيب فى القراءة والحث على الاطلاع . وتحدث عن الأغانى السودانية وطالب المثقفين السودانيين بضرورة المحافظة على الطابع السودانى فى أغانيهم لكيلا ينزلقوا عن سودانيتهم ويضيعوا بين المصرية والسودانية وأحياناً بين الشرقية والغربية . وطالب بإنشاء معهد للموسيقى السودانية فى الخرطوم بمعاونة الحكومة لاعتقاده أن فى السودان تربة صالحة للموسيقى السامية وغناء يأخذ بالألباب . كما نادى بوجوب الاهتمام بالمسرح وبأن يبقى السودانيون فى السودان لإيجاد مسرح يبرزون فيه ويصبحون فوقه نجوماً وأبطالا فذلك خير من أن يهاجروا فى أرض الله الواسعة .

ومن الملاحظات الاجتماعية التى استرعت انتباه المؤلف الرحالة حرص المرأة السودانية على التمسك بتقاليدها الموروثة وهى الوشم والتشليخ وتضفير الشعر وإرساله ضفائر طويلة . ورأى فى السوق امرأة فى جيدها عقد أخضر جميل له صفوف ثلاثة متوازية ولم يكن هذا عقداً بل كان وشماً جميلا ولم يجد المؤلف غضاضة فى استخدام المرأة السودانية للوشم محافظة على تقاليدها وعاداتها وأضاف إلى ذلك قوله : صحيح أن فى السودان نهضة نسائية ولكنها لا تزال فى المهد فإقبال الفتاة على التعليم مشوب بالخوف والحذر ويرى أكثر الآباء أن التعليم لا بد أن ينتهى بالبنت إلى أن تكون زوجة صالحة وأما ملمة بأصول التربية الحديثة لصغارها .

ولا يخلو الكتاب من إشارات وطنية فهو يعجب أن أكثر أسماء شوارع الخرطوم انجليزية مثل غوردون وكتشنر وستيوارث وستاك وفيكتوريا وغيرها وخليق بها أن تكون سودانية أو مصرية كما لاحظ أن رجال البوليس السودانى يضعون فوق رءوسهم القبعات وطالبهم بارتداء عمائمهم السودانية المشهورة . .

والكتاب مكتوب فى أسلوب يتدفق رقة وعذوبة وسلاسة وسهولة وتظهر ميول المؤلف الأدبية فى أغلب مواضع الكتاب فهو عندما يعرج على النيل الأزرق الذى يجرى هادئاً رخياً يناديه بقوله :

كأنها الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها

وهو يستعين فى مواطن شتى من الكتاب بذكرياته الأدبية ويستخدم ثقافته فى هذا الميدان فإذا اشتد عليه الحر استغاث كما استغاث حافظ ابراهيم بالأستاذ الإمام أن يرده إلى مصر متغنياً بقول حافظ :

أثرت بنا من الشوق القديم وذكرى ذلك العيش الرخيم
وأيام كسوناها جمـــالا وأرقصنا لها فلك النعيم

ولم تكن رحلة المؤلف إلى السودان تخلو من غرض سياسى وهدف دبلوماسى إذ شاء أن يتبين وجهات النظر المختلفة فى السودان فأخذ يتحدث إلى الشعب السودانى ويسأل الرجل فى الطريق فيجيبه مصر ويسأله الشيخ الكبير : من أين أنت آت فيقول من مصر فيجيب الشيخ الكبير : إنى مع مصر لأنى أحبها فإنها قدوة . . وقدوة صالحة للسودان بالذات فى نهضتها المتعددة النواحى .

وعندما زار المؤلف البرلمان السودانى تمنى أن تتحقق الوحدة ويرى فى المجلس النيابى المصرى نواباً سودانيين ويرى فى المجلس النيابى السودانى نواباً مصريين ولو قدراً معيناً من هؤلاء وأولئك هنا وهناك ، فكم من مصريين ماتوا من أجل السودان وكم من سودانيين ماتوا فى سبيل مصر ، وفى مصر رفات سودانيين شهداء وفى السودان رفات مصريين شهداء ولن تضيع هدراً دماء أولئك وهؤلاء . . . بل لابد أن تتحقق الوحدة ويفرح المؤمنون بنصر الله . . .

وأخيراً يتغنى بقول الشاعر :

منىً إن تكن حقاً تكن أحسن المنى

وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

هذا هو طرف من الحديث الشيق الذى تغنى به الأستاذ محمد شاهين حمزة فى كتاب (رحلة إلى السودان) وإنه لكتاب طيب وإنها لرحلة موفقة بمشيئة الله تعالى . . .

—✻—

محجوب ثابت ... ورحلته الى السودان

كان محجوب ثابت من أشهر الأطباء فى مصر فى النصف الأول من هذا القرن وكان لا يضن بجهد على المرضى فيعودهم آناء الليل وأطراف النهار ولا ينتظر وراء ذلك جزاء ولا شكوراً بل إنه كان يخف لمعالجة الفقراء قبل الأغنياء ولا يتحرج من أكواخهم ومساكنهم بين الأزقة والمنعطفات .

وكان يمتاز بروح مرحة ودعابة حلوة لا تفارق شفتيه بل تلازمه فى أشد المواقف حرجاً وأعظم الأزمات ضيقاً فإذا به يرسل اللمحة الطريفة أو النادرة الخفيفة فتنقشع الكربة وتزول الغمة وترتسم الابتسامات على الثغور وكان محجوب ثابت إلى جانب دراسته الطبية وثقافته العلمية أديباً مرهف الحس متدفق الشعور يحب الأدب ويطرب له ويهوى الشعر ويهتز له وكان كثير المحفوظ من الشعر القديم عظيم الاطلاع على التراث العربى الدفين دائم الاستشهاد بالطريف من المثل والجميل من القريض وفى هذا المعنى يقول الأديب الساخر عبد العزيز البشرى « وفيه ذكاء حاد ، يديم القراءة والنظر فى الكتب ، وكأنه يحفظ بظهر الغيب كل ما يقرأ ، تعرف هذا من علمه الواسع الذى يكاد يستغرق كل ما فى الدنيا وكل أسبابها إلا أن علمه مع الأسف يختلط بعضه ببعض ولو قد ملكت أمره وكانت لى بسطة فى المال والسلطان لدعوت بمستشرق ألمانى فنى لينظم هذه المكتبة العظيمة فيضم كل شكل إلى شكله ويجمع كل جنس إلى جنسه ويرد كل معنى إلى بابه ويصف كل فن فى دولابه » .

وقد كان محجوب ثابت يحب السودان حبا جماحتى أنه كتب بعض مقالاته تحت عنوان « حبيبى السودان » لما يكنه له من حب عظيم ومودة موصولة ولما يربطه بأبناء السودان من صداقات وطيدة وعلاقات أخوية متينة .

وقد أتيح له أن يسافر إلى السودان فتركت هذه الرحلة فى نفسه أثراً عظيما لا تبلى طرافته أو جدته .

وسئل محجوب ثابت ذات يوم : ما الشيء الذى مس شغاف قلبك فى السودان؟ فاجاب بما أجاب به شاعر قديم « تدرى وتسألنى .. تجاهل عارف ».

ليس هناك شيء واحد مس شغاف القلب وحرك نياطه وهز أعصابه بل هى أشياء كثيرة ، فمن جمال الوادى وادى نيلنا الخصيب ، وادى أبينا النيل مصريين وسودانيين . . عربا كراما أو سودانيين أشاوس سودا أو مولدينا غرا ميامينا .

فالنيل معبودنا القديم بل والحديث إذا تكلمنا عنه اقتصاديا فماؤه عذب وذراته تبر ذهب ومضى الدكتور محجوب ثابت يقول : إن الشعور بالفرح والابتهاج برؤية النيل كان يخالجه ويعم حواسه كلما حل على شاطئيه ، ولا ينسى نغمات النسيم التى كانت تنعش روحه وهو فى طريقه إلى « سنجا » فلما مر به السائق قريباً من شاطئه تعرف ذلك قبل رؤية مائه الخصيب السلسال الزلال العذب الجميل بنغمات نسيم عليل يخترق غابات أشجار الطالح والهشاب الجميلة والسنط القوى الذى يشبه سنط الصعيد بين « أبى تيج » «وأسيوط» وذكره المارة ذوو العمائم الذين يحملون بدل العصى رماحا وهم فى القامة كاعتدال تلك الرماح قواما بنضرة الجمال العربى عيونا وقدودا ومظاهر شجاعة وبسالة .

وكان محجوب ثابت يترنم فى رحلته باندلسية شوقى المشهورة بين « كسلا » والقصارف حتى وصل «سنار» وهو بالقطار :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا	نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا	قصت جناحك جالت فى حواشينا
فان يك الجنس يابن الطلح فرقنا	إن المصائب يجمعن المصابينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا	سهماً وسل عليك البين سكيناً

وقد قضى محجوب ثابت فترة سعيدة من حياته فى وادى مدنى وناديه الجميل كما طرب من الشاعر السودانى مدثر البوشى الذى يعتبر من أبرع الشعراء السودانيين فى العصر الحديث واجتمع بكرام الجعليين والمحسبيين الذين يمتون إلى الخزرج أصلابا وأرحاما كما يمت الجعليون إلى العباسيين ولقد ناوأ هؤلاء بل

وحاربت قبيلتهم (الرباكاب) ملوك الفونج بسنار وهم يمتون إلى الأمويين وقد مكث محجوب ثابت بين أهل السودان مغمورا بلطف حديثهم ثملا بكل ما رأى .

هذا وقد زار محجوب ثابت فى رحلته الزعيمين الكبيرين السيد عبد الرحمن المهدى والسيد على الميرغنى كما زار آل البدير وآل هاشم وآل عبد المنعم وغيرهم من علية القوم

وقد كان يردد أثناء رحلته دائما قول شوقى فى أندلسيته التى لو كان رأى أودية الطلح بالسودان وغاباته بظاهر تلك المدائن كما رآه بظاهر إشبيلية لكان أطلق عليها السودانية بل لقد أطلق عليها محجوب ثابت الاندلسية السودانية من أجل هذا كله كان محجوب ثابت من أحب الشخصيات إلى السودانيين والمصريين على السواء بل لقد وصفه بعض الكتاب بانه أمة بما اجتمع له من الصفات وما احتشد لديه من فنون المعلومات وما تكدس عليه من ألوان التبعات ، وهو إذا اعتبر لنفسه حق التحدث فى كل شىء والدخول فى كل دقيق وجليل فقد وصف بإزاء هذا بأنه لكل واحد فيه نصيب ، واقترح بعضهم مداعبا أن تصدر الحكومة قراراً بنزع ملكيته وإضافته إلى المنافع العامة ولعلها تجعله من نصيب دار الآثار حتى يظل رمزاً لتلك العبقرية الفريدة على مر العصور .

---*---

شاعر الأقطار العربية فى السودان

(٧ — دراسات فى الأدب السودانى)

أما شاعر الأقطار العربية فهو الشاعر خليل مطران الذى احتفل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بذكراه وقد أتيح له أن يسافر إلى السودان ليقضى فيه فترة من فترات حياته كانت من أنضر الفترات وأعذبها .

وقد صرح هناك ببعض الآراء والأفكار التى تفصح عن شخصيته وتدل على مزاجه الفنى واتجاهه فى نظم الشعر .

وقد بدأ الشاعر رحلته إلى السودان فى شتاء عام ١٩٤٤ مع صديقه الاقتصادى الكبير الدكتور يوسف نحاس ، فلقيا من صفات كرام السودانيين وتحية أدبائهم ما يعجز عنه الشكر ولما عادا من تلك الرحلة وعوفى الشاعر من المرض الذى ألم به نظم قصيدة عصماء أهداها إلى أولئك الإخوان الأعزاء وجاء فيها :

سألت نجيتى شيئا يقال	فلم تأبه ولم يجب السؤال
مخدرة أبت لا عن دلال	ولو فعلت لحق لها الدلال
ولكن مسها ضر عرانى	ففيها من تباريحى كلال
إذا ما الداء أقعد جسم حى	أتنشط روحه وبها كلال
على لصفوة نجب حقوق	أنوء بها وأعباء ثقال
لقونى زائرا ولقوا صديقى	بأنس فاق ما كنا نخال
وأولونا القلائد فى حلاها	تنافس الارتجال والاحتفال
فما أنا فى الوفاء وما رفيقى	إذا ما أعجز الشكر النوال

وانتقل الخليل بعد ذلك إلى وصف مرابع السودان التى بهرت عينيه وأثارت فى نفسه ضروبا شتى من المشاعر وصنوفا عدة من الخواطر ، فالسحر الحلال يكسوها والجمال يسودها والخيال ينطلق من جمالها والنيل يتهادى بين

ربوع السودان جميلا جليلا فى روعة وفتون ، والصحراء تمتد فى فتنة وجلال وتحيطها الجبال فى جلال ووقار ، بينما لأتغرد اطيار فى جنباتها وبين أيكها وتترقرق هنا وهناك الجداول وتتألق الغدران .

بلاد تستبي الأحلام فيها حقيقتها ويسبيها الخيال
لمجرى نيلها ولضفتيه جمال لا يباهيه جمال
وللبيد السحيقة والرواسى جلال لا يضاهيه جلال
وليس كأيكها أيك يغنى ولا كـد حالها زأرت دحال[1]

ولم يشأ خليل مطران أن تطأ أقدامه أرض السودان دون أن يبارك كفاح السودانيين فى سبيل الحرية ويبين جلادهم فى سبيل الوصول إلى أهدافهم القومية وأغراضهم الوطنية منذ قديم الزمن فقال :

بنى السودان حيا الله قوما بهم هذى الفضائل والخصال
لقد عبرت بكم محن كبار بها أبطالكم جالوا وصالوا
وأعقبها تراك[2] لم تذلوا لحكم الدهر فيه ولم تزالوا
فأما فى الغداة وقد نهضتم فما من عثرة إلا تقال

وهكذا كان خليل مطران يدعو إلى الأخذ بناصر السودان حتى يقال من عثرته وحتى يأخذ مكانه بين الأمم الكريمة والشعوب الحرة ولا غرو فى ذلك فالسودان يضم كثيرا من الكفاءات الممتازة والشخصيات البارزة والرجالات الأفاضل والعلماء الأماثل الذين يمكن أن تتحقق مصلحة السودان على أيديهم وهم بين شيوخ محنكين ينطقون بالحكمة ولا يصدرون عن الهوى وشبان مجاهدين وطنيين يتدفقون إحساسا وحماسا .

شباب أذكياء تلوح فيهم لكل عظيمة ترجى خلال
وأشياخ ميامين حصاف تزكى ما يقولون الفعال

---

(١) الدحال : مجامع الماء .
(٢) تراك : ترك وانصراف .

فهيا في نواحي المجد هيا ولا يعدم سوابقكم مجال
أعدوا للحمى الغالي حماة إذا قل الحمى أين الرجال

وتمضي القصيدة كلها على هذا المنوال تنبض بحب السودان وتدعو إلى رفعته ومجده وإعلاء شأن أبنائه والإشارة إلى العلاقات الوثيقة والوشائج المتينة التي تربط مصر بالسودان منذ قديم الأزمان وغابر الأيام ، ولم يصرح خليل مطران بذلك في شعره فحسب إنما صرح بذلك أيضا فيما ذكره من أقوال للصحف والمجلات السودانية التي رحبت بمقدمه أيما ترحيب .

ونشرت مجلة السودان الجديد فصلا عن شاعر القطرين خليل مطران في عددها الصادر في ٢٦ من يناير عام ١٩٤٥ جاء فيه «والخليل ليس بمجهول المكان من أدباء قطرنا السوداني فهو محبوب منهم وقد حدث أن راسله بعضهم إعجابا » ومما يروى بهذا الصدد أن البريد قد حمل يوما إلى مطران وهو بالقاهرة رسالة من السودان يقول فيها مرسلها السوداني إن له صديقا عزيزا استأثرت به رحمة الله فأصبحت حياته بعد فراقه لا تطاق ورجاه أن يبعث إليه بشيء من شعره يكتبه على صورة الفقيد التي كانت مع الرسالة فلم يخيب الشاعر الرقيق الإحساس صاحب الرسالة الحزينة الذي لم تكن له به معرفة شخصية بل نزل عند رغبته وأعاد إليه الصورة بعد أن كتب عليها هذا الشعر الرصين :

يا صديقا شعرت إذ بان عني أنه حيل بين روحي وبيني
نغدو نا طيفين ترمق رسمي منه عين ورسمه نصب عيني

وخليل مطران في نظر مجلة السودان الجديد بعد ذلك ثالث ثلاثة ما برحت لهم الصدارة في دولة الشعر العربي ، ويحكى عن مطران أنه قال : « أنا وحافظ وشوقي يتكون منا شاعر » .

ونشرت مجلة صوت السودان في ٣٠ من يناير سنة ١٩٤٥ حديثا لمندوب الجريدة مع شاعر العروبة مطران ومنه نستطيع أن ندرك رأيه في الشعر العربي

والموهبة الشعرية وجو الإنتاج الفنى وختم حديثه بتحية كريمة أهداها إلى أبناء السودان جاء فيها :

يا إخوانى . . إذا خلصت النية وصدقت العزائم واتجهت القلوب اتجاها يؤيده الإيمان فأبشروا بالخير الكثير ، إن الأمم تحيا ، إن الأمم تنهض ، إن الأمم تصبح ما تريد أن تكون فى هذه الدنيا بفضل العزائم التى يقدمها هؤلاء الفتيان وبفضل الأخلاق الكريمة التى يجعلونها فى خدمتها ونحن بكل قلوبنا نريد السودان أن يكون فى المستوى العادل للمستوى الراقى فى سائر الأمم ناهضا علما وفنا وأدبا واقتصادا ومتخذا لرقيه هذا كل الوسائل التى اتخذتها الأمم الأخرى من قبل . نحن نريد ألا يطول ذلك الأمد حتى نكون جميعا فى مستوى واحد ، وأن نوفق إلى إعطاء صورة تشرح الخصائص التى ميزنا بها مضافة إلى الفضائل العامة التى تجمع أبناء الوادى فى كل مكان .

تلك كانت تحية الخليل إلى أبناء السودان منذ أكثر من عشر سنوات وهى تحيتنا لأبناء السودان اليوم .

*

كتاب جديد لباحث من الخرطوم

قرأت منذ أيام فصلا ممتعاً للدكتور طه حسين فى إحدى الجرائد اليومية الصباحية الكبرى عن كتاب جديد ظهر فى السوق يسمى المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها وقد ألفه الدكتور عبد الله الطيب المجذوب المدرس بكلية الخرطوم الجامعية وبمعهد اللغات الشرقية فى جامعة لندن سابقاً وقد استهوانى هذا الفصل الممتع إلى الاطلاع على هذا الكتاب ، إذ كان الدكتور طه حسين — فى فصله — يكبر كل الإكبار هذا الكتاب ومؤلفه فأحببت أن أطلع على هذا الأثر النفيس الذى يستحق هذا الإكبار وغنى عن البيان أن « طه حسين » رجل دقيق فى أحكامه دقيق فى كلامه .

والواقع أنى وجدت الكتاب أهلا لهذا الإعجاب وجديراً بهذا الإطراء وخليقاً بهذا الثناء فهو كتاب ممتع وهو يقوم على فكرة بسيطة ، وهى أن الشعر العربى من حيث الصناعة يقوم على الأركان الآتية: النظم والجرس اللفظى والصياغة ثم إلقاء الكلام على صور خاصة من الأداء وفى أساليب ومناهج تمليها عوامل التقليد والبيئة على مر الأزمان واختلاف الأمكنة وتؤثر فيها الأفكار المستحدثة وما يجرى مجراها من دواعى التغيير والتجدد . وقد جعل كتابه هذا مقصوراً على ناحية النظم وهو يأمل أن يكتب كتباً أخرى فى نواحى الجرس اللفظى والصياغة والبيان والبديع إلى آخر ذلك .

والواقع أن كتابه هذا يبشر بجودة كتبه القادمة فهو كتاب حسن الترتيب طيب التبويب وافر الشاهد كثير الأمثلة يؤثر البحث والإحصاء والاستقصاء وينفر من السطحية الفارغة التى لا تفيد علماً ولا تؤتى ثمرة ، ويتخلص من الحشو المرذول الذى لا طائل تحته ولا فائدة ترجى من ورائه .

وقد حرص الدكتور الطيب فى كتابه هذا على ضرب الأمثلة وسرد النماذج من الشعر العربى القديم والشعر العربى الحديث فهو تارة يروى عن الشنفرى

وامرئ القيس من العصر الجاهلي وحسان بن ثابت وكعب بن زهير من صدر الإسلام وأبي تمام والنجدي والمتنبي من العصر العباسي ، وتارة يروى عن علي الجارم وعلي محمود طه والتيجاني يوسف بشير من العصر الحديث وهو في العصر الحديث لا يختار نماذجه من الشعراء المصريين والسودانيين فحسب إنما يختار نماذجه من شعر المهجر وشعر المشرق جميعاً فهو يروى عن إلياس أبي شبكة وإلياس قنصل وغيرها وقد يتعدى الشرق إلى المغرب فيروى عن أبي القاسم الشابي شاعر المغرب المعروف الذي يسيل رقة وعذوبة . والأستاذ المؤلف لا يحرص على ذكر آراء كتاب الشرق فحسب إنما يحرص كذلك على الاستئناس بآراء كتاب الغرب فيعرض لآراء جب ومرجليوث ويفان أستاذ اللغة بكمبردج وكارموس ليال شارح المفضليات .

ومن هنا كان هذا الكتاب يرضي الأذواق جميعاً ويرضي الأمصار والأقطار جميعاً يرضي أهل الشرق لأنهم يجدون فيه شعراءهم يعرضون على مشرحة النقد والتحليل والتعليل ويرضي أهل الغرب لأنهم يجدون فيه صورة من تعاليمهم ولوناً من انتقادهم وضرباً من روحهم وقد استهل المؤلف كتابه ببيان أن النظم العربي يقوم على عمادين الأول البحر ويتكون عادة من عدد المقاطع الطويلة والقصيرة منظمة بطريقة خاصة والثاني القافية وهي الحرف الذي يجيء في آخر البيت وقد ناقش الدكتور هذه النظم العربية في الشعر وذكر أمثلة وشواهد من حديث الرسول تجرى على ما اتفق عليه العرب من أوزان كقوله صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين . أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

إلا أن الدكتور الطيب يخرج من هذه الشواهد إلى أنها حدثت حدوث الصدفة لا أكثر ولا أقل وجرت مجرى الاتفاقات النادرة دون تعمد ودون تكلف ودون قصد .

وقد خصص المؤلف البحث الأول في عيوب القافية ومحاسنها وأنواعها مثل « الإيطاء » وهو تكرار قافية بعينها « والإقواء » وهو المخالفة بين حركات

الإعراب في القوافي « والتضمين » وهو أن تعلق قافيـة البيت على ما بعدها فلا تـكاد تستقل بنفسها .

وخصص المبحث الثاني لأوزان الشعر وموسيقاها وأوضح أن موسيقا الشعر أمران : النغم المنتظم وهو التفعيلات ثم جرس الألفاظ ، وقد تحدث في هذا المبحث عن التفعيلات وأجل الحديث عن الجرس إلى حين الحديث عن الصياغة والبيـان .

وقد ناقش الباحث في هذا الفصل النمط الصعب من أوزان الشعر الذي يندر استعماله في الشعر العربي ، والأوزان المضطربة التي كرهتها آذان العلماء الأوائل فاعتبرها كأنها غير مستقيمة . ثم ناقش الأوزان القصار بأقسامها المختلفة والبحور التي يأخذ بعضها من بعض شيئاً من الوزن وضرباً من الموسيقى ثم تحدث عن البحور الطوال كالمنسرح والخفيف ثم عن الرجز وقص علينا الأساطير الشائعة في نشأته التي تجعله أقدم أوزان العرب إذ اشتق من حركة البعير وكان أول من نطق به معد بن عدنان حينما كان راكباً فسقط فانـكسرت يده وجعل يصيح « يدى يدى يدى » فـكان هذا رجزاً . وذكر الباحث أنه قرأ أن معد ابن عدنان كان يقول « وايداه وايداه » وهذا ليس برجز بحال من الأحوال . وقد استخلص من هذه القصة نتيجة هامة في تاريخ أوزان الشعر العربي وهي أن الرجز ليس أقدم الأوزان كما قالت العرب ولا بدأن تـكون الأوزان الأولى قد بدأت بصفة أقصر وأقل نظاماً .

وقد خصص المؤلف فصلا من كتابه في الحديث عن أشعار شوقي التي تجرى على بحر الـكامل وأطلق عليها الـكامليات . ولشوقي في الـكامل عدة مذاهب حينما يحاكي أبا تمام وحينما يقلد النجدى وربما حاكى الشريف أو ابن هانيء وقد ذكر الأستاذ الباحث في هذا الفصل نماذج متعددة من شعر شوقي كقوله :

يا أخت أندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والإسـلام
نزل الهلال عن السماء فليتها   طويت وعم العـالمين ظـلام

وقد استحسن المؤلف قصيدة شوقى القافية وهو يخاطب النيل واعتبرها حية النفس قوية الشعور ينظر فيها بعين الإنسانية الرحبة الأفق العريضة الأرجاء لا بعين الوطنية الضيقة :

من أى عهد فى القرى تتدفق   وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من   عليا الجنان جداولا تترقرق
وبأى نول أنت ناسج بردة   للضفتين جديدها لا يخلق

والواقع أن الإعجاب بها لا يرجع إلى هذا فحسب إنما يرجع إلى عوامل أخرى منها المعانى العذبة والجرس الموسيقى الرخيم .

والباحث فى هذا الفصل الذى كتبه عن كامليات شوقى لا يتحدث حديث العالم المحقق الذى يزن دقائق الأمور ويستجلى حقائق الأشياء فحسب إنما يتحدث كذلك حديث الناقد مرهف الحس عذب الشعور قوى الملاحظة حاضر البديهة الذى يحكم ذوقه الفنى فى الحكم على الأشياء ، ومن هنا جاء البحث طريفاً لطيفاً يستهوى النفوس ويستولى على مجامع القلوب . وقد أعلن الدكتور الطيب فى هذا الكتاب رأياً خطيراً فى الأدب يهم الباحثين فى أدب مصر الحديث وهو أنه لا يستطيع أن يقارن شعر حافظ إبراهيم بشعر أحمد شوقى والمسافة بينه وبين شوقى كبيرة المدى وقد استقبح بعض أبيات لحافظ جاءت من بحر الكامل مثل قوله :

شبحاً أرى أم ذاك طيف خيال   بل ذى فتاة بالعراء حيالى

واعتقد أن الإعجاب بهذه القصيدة يرجع إلى كثرة ذكرها وتلقينها للشباب وحرص الأساتذة على تعليمها للنشء فى المدارس . ولكنى لا أوافق الأستاذ الباحث على هذا الرأى واعتقد أن حافظ دعامة قوية من دعامات الشعر فى العصر الحديث . فحافظ فى كاملياته وفى غير كاملياته شاعر يسيل رقة وعذوبة ، ولنظمه موسيقا عذبة تصل إلى القلوب وتشيع فى النفوس إعجابا وتعلقا بها .

حقا كان حافظ يقل فى ثقافته عن شوقى ، ولم يتح له من أساليب الثقافة

العربية ما كان لشوقى إلا أنه مع هذا كان كثير الاطلاع واسع المعارف دائبا على تصيد المعانى ، وهذا لا يتاح إلا للقليل من شعراء العصر الحديث وقد حاول الأستاذ المؤلف أن يتجنب — ما استطاع إلى ذلك سبيلا — استخدام الاصطلاحات العلمية والقواعد الكثيرة التى أثقل بها العلماء كاهل العروض وأطلق على بعض البحور أسماء جديدة كأن أطلق على البسيط والمنهوك والمقتضب والمتقارب القصير بحورا شهوانية لأن نغماتها لا تكاد تصلح إلا للكلام الذى قصد به قبل كل شىء أن يتغنى به فى مجالس الشراب والرقص وضرب مثلا على ذلك قول شوقى :

طال عليهـــا القــــدم   فهى وجـــود عـــدم
قــد وئدت فى الصبا   وانبعثت فى الهــــرم

ومنها قوله أيضا :

تمـــرح فى مأمن   مثــل حمام الحــرم
مؤتلف سربهـــــا   حيث تلاقى التأم
مندفعـــات عـــلى   مختلفــــات النغم
بين يــد فى يــد   أو قـــدم فى قـــدم

وقد رأى الأستاذ الباحث فى بعض شعر على محمود طه لونا من الحزن الخالص وهذا صحيح ولكنه ميزة من ميزات الأدب الرومانتيكى الممتاز كما وجد فيه لينا معنويا ولفظيا مع غموض فى التشبيهات والصور والتعابير على وجه الإجمال مثل قوله حيث « يروى الموج فى أرخم نبرة حلم ليال من ليالى كليوبترة » وعندى أن هذه الصورة لا غموض فيها ولا إبهام ، إنما هى صورة تاريخية تحمل ذكريات العالم الذى أعجب به شكسبير وجوته وغيرهما من أعلام الأدب الأوربى .

ومما سهل طريق البحث فى هذا الكتاب وجعل أدواته سهلة مؤدية — وهو يقع فى حوالى خمسمائة صفحة — أن المؤلف خصص لكتابه فهرسا دقيقا للأعلام وراعى ترتيب الأعلام بحسب الكنى والألقاب والأنساب المشهورة .

فإذا أردت أن تنظر فى أبى تمام فعليك بباب التاء لا الحاء ، إذ أبو تمام أشهر من حبيب بن أوس . وإذا أردت أبا الطيب المتنبي فعليك بباب الميم لا الطاء ولا الهمزة . ولم يلتفت إلى الأب والابن فى ترتيب الأعلام الأولى وهذا التقسيم يجرى على الأسس الغربية فى التبويب التى جرى عليها ملفيل ديوى وغيره . وهذه حسنة من حسنات هذا الكتاب يتمشى مدلولها مع اسم الكتاب نفسه فهو مرشد أولا وقبل كل شيء إلى فهم أشعار العرب وصناعتها . ومن أطرف اللمسات الفنية التى قرأتها فى هذا الكتاب القيم إلى جانب عنايته بشرح أوزان الشعر وقوافيه والبحور وتفاعيلها وأجناسها وما يتفرع منها فى شيء من الإسهاب والتفصيل ، رأيه فى غزل العقاد . فهو يقول إن خلاصة مذهبه فى الحب والجمال بحسب ما نجده فى ديوانه الأول أن الجمال كما يقول الفرنجة عبقرية فى ذاته وأنه يتبقى للجميل ألا يضن بالوصل وفى هذا يقول العقاد :

حبك حب الشمس فهى مضيئة   وأنت مضىء بالجمال منير

ويقول فى مقطوعة أخرى :

لمن الجمال تعده   أتعده للناسكينا
أم للذين تسللوا   ختلا فطوبى للذينا

وهذا المذهب يجرى على مبدأ المتنبي فى قوله :

زودينا من حسن وجهك ما دا   م حسن الوجوه حال تحول
وصلينا نصلك فى هذه الد   نيا فإن المقام فيها قليل

وقد ناقش الأستاذ المؤلف عبد الله الطيب الأستاذ العقاد فى رأيه هذا مناقشة ممتعة لذيذة وهذا على أية حال رأى يعلنه ومن شاء كان له من المؤيدين أو من المعارضين ، غير أنه رأى يدعو إلى كثير من التفكير ويثير جوا أدبيا طريفا قوامه الذوق وعماده الإحساس الفنى الخاص .

هذا عرض عام لهذا الكتاب القيم الذى ألفه أحد أساتذة كلية الخرطوم

الجامعية فى أوزان الشعر العربى وبحوره وأطلق عليه المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها .

وقد أشار فى ختامه إلى أنه لم يتحدث فى هذا الكتاب عن الجرس اللفظى ، والجرس اللفظى مهم جدا فى إبراز موسيقا الأوزان كما أنه مهم جدا من حيث إنه المكون للحكايات التى يكون بها أداء الشاعر وعن طريقها تظهر المعانى التى يقصد إليها وذكر أنه سوف يخصص كتابه التالى لهذا الغرض ونحن نأمل أن يحالفه فيه من التوفيق ما حالفه فى كتابه الأول .

وليصدقنى مؤلف هذا الكتاب الدكتور عبد الله الطيب وليصدقنى قراء الدكتور عبد الله الطيب أن كتاب المرشد هذا كتاب طيب إلى أبعد الحدود جيد غاية الجودة ، وهو مرشد أمين ينفع السائرين ويهدى السارين فى ليل الشعر وأرض الأحلام وعالم الخيال . يلتمسون كوكبا يتألق فى سمائهم ونجما يتلألأ فوق هاماتهم فيحيل ظلامهم نورا وطريقهم وضوحا واشراقا ، فإذا العصى من الأمر يسهل وإذا القصى من الأمل يقرب وإذا العسير من الطلاب يهون .

—*—

أثر النهضة الأدبية الحديثة في السودان

شهد العصر الحديث فى مصر والشرق العربى نهضة أدبية واسعة وقد شملت هذه النهضة الضروب والألوان المختلفة للأدب من شعر ونثر وقصة ومسرحية وما إلى ذلك .

وقد قامت الترجمة بنصيب كبير فى هذه النهضة وأتيح للأدب العربى الحديث منذ أوائل القرن الماضى أن يتعرف على الحضارة الأوربية وأن يطل من خلالها على آفاق جديدة فى الحياة وكان ذلك عن طريقين رئيسيين : الأول طريق الترجمة أى نقل منتجات الفكر الغربى إلى اللغة العربية ، والثانى طريق الاطلاع المباشر على ما نشر فى لغات الغرب من شتى العلوم والآداب .

وقد تناولت الترجمة فى مصر كثيراً من الموضوعات العلمية والفنية ثم جنحت إلى الناحية الأدبية وقد أصاب من قال إن القرن التاسع عشر كان لحركتنا الفكرية الحديثة عصر ترجمة ، وإن هذا العصر لا يزال يمتد إلى وقتنا هذا وقد ذكر المستشرق كراتشفويسكى بعد الاطلاع على فهرس يحتوى على عشرة آلاف قصة مترجمة أن هذه القصص قد نشأت بتأثير الأدب الأوربى المباشر ، ومايصدق على القصة يصدق على سائر ألوان الكتابة .

وقد أخرجت المطبعة العربية عام ١٩٠٣ ترجمة شعرية لإلياذة هوميروس بقلم الشاعر سليمان البستانى ، كما ظهرت عام ١٩١٢ ترجمة لرباعيات الخيام لوديع البستانى ، ثم تصدى لترجمة الرباعيات من الفارسية رأساً عدد كبير من الأدباء وكثرت الترجمة عن الإنجليزية والفرنسية وممن عنى بالترجمة عن الفرنسية الشاعر المصرى محمد عثمان جلال ونجيب حداد وإلياس أبو شبكة ثم طه حسين وخليل هنداوى ومحمد مندور وإبراهيم المصرى ، وممن عنى بالترجمة عن الإنجليزية خليل مطران ومحمد عوض إبراهيم وعباس محمود العقاد وتوفيق أحمد البكرى وممن عنى بالترجمة عن الألمانية محمد عوض محمد وعبد الرحمن بدوى وسليم سعده وغيرهم .

وقد كان لهذه الترجمات أثر كبير فى السودان وساعد ظهورها على انتعاش الروح الأدبية وتقدم الحياة الفكرية .

وقد جاء فى مقال للأستاذ إسماعيل فوزى — أحد كتاب الطليعة فى السودان — فى مجلة النهضة السودانية لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ محمد عباس أبو الريش ، جاء فى هذا المقال أن الترجمة هى الدرجة الأولى فى سلم التطور الأدبى عند الأمم ويرى الذى يستقرئ تاريخ التطورات الأدبية فى كل العصور وعند جميع الشعوب أن عصور الترجمة سبقت عصور التصنيف والوضع والنهضة الأدبية المصرية الحديثة أقرب شاهد على هذا فقد كان جميع أدباء هذه النهضة البارزين مترجمين قبل أن يكونوا كتابا .

وهكذا استعان الكتاب السودانيون بالترجمة ، وترجموا أقاصيص ومسرحيات وبحوثاً تاريخية وأدبية . وقد عنيت مجلة الفجر السودانية التى يرأس تحريرها الأستاذ عرفات محمد عبد الله عناية خاصة بترجمة الآثار الغربية ونقل تراث الفكر الغربى إلى اللغة العربية كما اهتم المستشرقون أمثال جاكسون وأديسون وكراوفوت اهتماماً بالغاً بنشر الثقافة العربية وصقلها للباحثين .

ووجد الشاب السودانى نفسه فى حاجة ملحة إلى دراسة المعلومات العامة وخاصة ما يسمونه علم الموسوعات ووجد من يطمح إلى قراءة موجز للتاريخ كتبه ويلز أو علم الحياة لويلز وولده وجوليان هكسلى ومن يريد أن يتوفر على قراءة موجز الآداب والفنون لجون درنك ووتر وصحبه وتاريخ المؤرخين للدنيا لناشره همود رث وغير ذلك من الموسوعات .

لا عجب أن تجد الثقافة الغربية سبيلها إلى السودان . فحياة الشرق والغرب أخذت فى التقارب والاحتكاك منذ قديم الزمن ، وتراث الإنسانية الفكرى تراث مشترك ولا تعرف دنيا الفكر التناحر والتنافر والدسائس التى تسود عالم السياسة والاقتصاد .

مهما يكن من شئ فإن نهضة الترجمة فى مصر تبعتها نهضة أخرى كبيرة

فى السودان كما أنها أطلعت الشباب السودانى على ثمرات طيبة من الفكر العربى والثقافة الأوربية الجديدة .

ولم تكن النهضة الأدبية فى مصر والشرق العربى مقصورة على النهضة فى الترجمة بل شملت شتى ضروب الأدب كما قلت وقد اهتم الكتاب المحدثون اهتماماً شديداً بكتابة القصة والمسرحية وشاعت كتابة القصة القصيرة فى هذا العصر شيوعاً واسعاً حتى أصبحت من أهم أبواب الأدب كما أننا إذا التفتنا إلى الرواية أو القصة الطويلة وجدنا أنها من ثمار النهضة الحديثة فإن القدماء قلما عنوا بها . والذى وصلنا من قصصهم الطويلة مثل سيرة عنترة وقصص سيف بن ذى يزن وبنى هلال وبيبرس ، ليس فى الحقيقة إلا أخباراً بطولية وضعت أو جمعت للتفكهة . وما يقال عن الرواية يصدق على المسرحية إذ أن هذا الفن على حد تعبير الأستاذ زكى طليمات دخل إلينا فيما دخل من ألوان الثقافة الغربية حينما أخذت بصائرنا تتفتح على أوربا وتنتهل من فنونها وأدبها بحكم ذلك الاتصال الاجتماعى والثقافى الذى توثق منذ أوائل القرن الماضى .

ولقد اهتمت الصحف والمجلات السودانية منذ فجر العصر الحديث بالقصة ، ونشرت مجلة النهضة السودانية ومجلة الفجر أقاصيص شتى يدور بعضها حول الحب أو الزواج أو تعالج المشاكل الاقتصادية أو الأسفار والمغامرات أو حياة الرقيق . والعجيب أننا نجد فى هذه القصص صوراً من المشاهد العاطفية الكبرى كما نجد فى ماجدولين أو آلام فرتر أو صحائف سن العشرين للشاعر الفرنسى لامارتين وقد نشرت مجلة الفجر السودانية مسرحية بعنوان زواج المصلحة فى خمسة فصول حاول كاتبها أن يقتفى آثار كتاب الغرب فى عرضه وحواره كما كتب الأديب السودانى عثمان محمد هاشم قصة تاجوج التى كان لها أكبر الأثر فى الأوساط الأدبية السودانية .

وقد شهد العصر الحديث نهضة واسعة فى الصحافة والأسلوب الكتابى ، وبعد أن كان الكاتب البارع من يدبج الفصل الطويل المسجع يملأ به صفحات

جريدته وإن خلا من المعنى وضاع المراد منه فى الحشو من الكلام ، أصبح الكاتب هو من يعالج الموضوع معالجة المصور، يرسم ما يريد تصويره... حتى يبرز لعين الناظر صحيحاً . وأصبحت الكثرة المطلقة من الذين يقرءون الصحف والكتب فى العصر الحديث تحرص على شيئين : الأول أن يقدم إليها نثر فصيح مستقيم اللفظ نقى الأسلوب برىء من الابتذال حر من أغلال البديع والبيان ، والثانى أن يكون هذا النثر على ما قدمنا ملائماً لذوقها الجديد وميولها الجديدة ، قيم فى معناه كما هو قيم فى لفظه حر فى معناه كما هو فى لفظه .

وقد تأثرت الصحافة السودانية بهذا الأسلوب الجديد ووجدناها تتحرر من الأسلوب العتيق وتنوعت الكتابة الحديثة بفضل الثقافة الحديثة وانتشار المطابع ، وأصبحت ترتاد موضوعات جديدة طريفة كتلك التى نجدها فى مقالات النهضة أو الفجر أو صوت السودان أو غيرها من الصحف والمجلات .

ومما هو جدير بالذكر أن السودانيين اتجهوا فى العصر الحديث إلى كتاب مصر وصحافتها ، وعرف كتاب السودان خصائص كل أسلوب من أساليب كتاب مصر فكتب الأستاذ الأديب عرفات محمد عبد الله يقول :

« إن أسلوب هيكل من النوع الاستطرادى المتسلسل وليس بالعميق الفكر كالعقاد ولا بالمتحيز الأسلوب كطه حسين ولا بالمشرق الديباجة كأحمد حسن الزيات ولا بالبارع فى تصوير الحياة كالمازنى . . . » .

وهذا المقال إن دل على شىء فإنما يدل على أن السودانيين كانوا ولا يزالون حريصين كل الحرص على الاطلاع على الثقافة المصرية وقراءة أدب الكتاب المصريين . وإنه ما من نهضة فى مصر الا ويكون لها أثر ، أى أثر — كما جاء فى إحدى القصائد التى نشرها الشاعر عبد الله عبد الرحمن — فى السودان . وقد صدقت دعوة أحد الأدباء فى مجلة الرسالة حين قال : « لقد كان لزاما على أدبائنا وشعرائنا أن يلموا بالكثير من الأدب العربى الحديث فى مصر وجاراتها من بلاد الشرق العربى كما يلموا إلماما حسنا بأصول الأدب الغربى ويطلعوا على الحديث منه بوجه خاص

قبل أن يحاولوا الإنتاج الأدبي المثمر الذى يريده لهذه البلاد المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة » .

وقد كان عبد الله عبد الرحمن نموذجا رفيعا للشعراء السودانيين الذين تأثروا بالكتاب والشعراء والمفكرين فى مصر فنظم قصيدة طويلة تعرض فيها لهؤلاء الأقطاب من رجال الفكر والأدب الذين كان لهم دور كبير فى الحركة الفكرية فى البلاد .

ولا أكذب الرحمن فى العصر أنجم — حماة لها من غيرة تتوقد
وصابة أدت أمانة قومها — وقامت على ضوء الرسالة ترشد
يطالعنا الزيات فيها بنافع — من القول لا يطغى ولا يتقيد
وهيكل فى أثوابه أى كاتب — خصيب إلى خير الأساليب يعمد
ولله طه بن الحسين فإنه — على نثره الفذ الخناصر تعقد
وإن تذكر الكتاب فاذكر غريبهم — شكيبا ففى آثاره ما يخلد

ففى الأبيات السابقة نلاحظ مدى تأثر عبد الله عبد الرحمن بالكتاب الذين تألقت أسماؤهم وازدهر إنتاجهم فى مصر وكان له صدى جليل فى السودان كالكاتب الكبير أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة ومحمد حسين هيكل الباحث الكبير وطه حسين عميد الأدب العربى وشكيب أرسلان المفكر الإسلامى الذى ذاعت مقالاته فى شتى الأقطار والأمصار وحمى حوزة الدين بدفاعه المجيد عن الإسلام والمسلمين وتأريخه لأمجادهم العظيمة وحضارتهم الزاهية . كما حمل عبد الله عبد الرحمن الشعور نفسه بالقياس إلى أحمد زكى باشا كاتب العروبة والمؤرخ والمحقق العربى العظيم فقال عنه :

زكى نصير العرب فى كل موطن — يهول وماضيها الذى تتقلد
وكان الرجال العبقريون إن قضوا — بما لهم من شامل النفع خلدوا
لقد كنت برا بالعروبة كلها — وفى نصرها قد كنت لا تتردد

ولم يكن أثر الشعراء المصريين أقل فاعلية من أثر الكتاب والمفكرين، وقد سجل الشاعر ... المشاعر نفسها إزاء الشعراء المصريين ، بل الشعراء العرب في شتى البلاد العربية ، مما يدل على تطلع السودانيين إلى أدب العروبة أينما كان وحيثما وجد ، كما ينم عن مطامحهم الواسعة وآمالهم العريضة ورغبتهم الشديدة في الاطلاع والتزود بأساليب الثقافة والمعرفة المختلفة ، قال عبد الله عبد الرحمن :

ومطران يسمو للخيال مصعدا فيألفه وحشيه المتأبد
ويعجبنى شعر الهراوى فإنه رصين قويم ليس فيه تعقد
جميل الزهاوى والرصافي كلاهما هو اليم في آذيه [1] يتزيد
أقاما بأرض الرافدين ليرفدا وودا لو ان الناس طرا تبغددوا

وقد كان التمسك بالعروبة والحرص على استخدام اللغة العربية السليمة مذهباً لرجال الفكر في السودان لا يحيدون عنه ولا يتهربون منه ولا يزهدون فيه .

ومثل هذا الاتجاه الشاعر عبدالله عبد الرحمن خير تمثيل حين قال في قصيدته السابقة :

بنى العرب في السودان والشرق كله بكم ولكم يورى زنادى ويصلد
أفيقوا فإن الوقت سيف مجرد عليكم ووقت الناس في الغرب عسجد
إذا لم نشخص داءنا فدواؤنا عسير وفي إغفاله ما يهدد
يهدد نهضات بدت في شبابنا جديدا وخوفى أنها سوف ترقد
علوم اللسان لو علمتم كثيرة وفي جهلها تركا لما هو أوكد
وأولها أن تروى الشعر ناصعا عن العرب لا يسمو إليه المولد
وأن تقتل الألفاظ نهما وتنتقى أحاسنها يوم الكتابة تقصد
فياليت شعرى هل ملأتم وطابكم من العلم حتى تكرموا وتمجدوا

---

(١) الآذى : الأمواج .

وهكذا كانت الحركة الثقافية فى مصر ذات أثر كبير فى السودان ، وكان لإقبال المصريين على العلم والتزود بالثقافة الحديثة أثر كبير فى تهيئة السودانيين لاستقبال التيارات الحديثة والأفكار الجديدة ، كما وجد السودانيون أن اللغة العربية السليمة هى الرباط الذى يربط السودان بتلك العروبة ، والوثاق الذى يدعم القومية العربية ، ومن أجل ذلك حرصوا على التمسك بأهداب العربية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .



شوقي والسودان

يحتفل فى الرابع عشر من شهر أكتوبر كل عام بذكرى وفاة أمير الشعراء أحمد شوقى إذ انتقل إلى رحمة الله تعالى عام ١٩٣٢ ففقد الأدب عند وفاته ركنا ركينا من أركانه ، كما تقوض صرح الشعر بعده .

وتمر الأيام وتتتابع السنون ، والعالم العربى يفتقد شاعراً من طراز شوقى أمير الشعراء ، فقد كانت ولادته حدثا عظيما فى تطور الأدب العربى الحديث ، له مظاهره البينة وله آثاره التى لا يمكن أن يغفلها الباحثون فى تاريخ الأدب العربى .

لم يكن أحمد شوقى صاحب لون معين من الثقافة إنما كان واسع الأفق متباين الثقافات عكف على شعر الأوربيين قراءة وبحثا ، فتجلت فى شعره نفثات من روحهم وومضات من فنهم ، كما عكف على شعر البحترى والمتنبى وأبى نواس وغيرهم وحاول أن يقلدهم حينا ويعارضهم حيناً آخر ، حتى يثبت لقرائه أنه يستطيع أن يقف مع هؤلاء الشعراء فى صف واحد ومضمار واحد وأنه لا يقل عنهم شاعرية ولا فنا ولا ينقص عنهم طول نفس .

ولكن عبقرية شوقى لا تأتى إليه من هذا الباب ، إنما تأتى إليه من باب آخر ، تأتى إليه من أنه شاعر بالطبيعة ، شاعر لا يتصنع الشعر ، ولا يتكلف القصيد ، إنما يصدر عنه الشعر كما يصدر الماء عن الينبوع وكما ينبعث الضوء عن المصباح وكما ينطلق الغناء عن الطير .

وأحمد شوقى يشبه فى ذلك الشاعر الفرنسى لامارتين الذى شدا بقوله :
« انى أقرض الشعر كما يغرد البلبل ، ويهدر الجدول ، وتصفر الريح » .
وأحمد شوقى يشبه فى ذلك أيضا الموسيقار العبقرى موزار ، الذى سأله

أحد الشبان يوما : « كيف أستطيع أن أؤلف السيمفونيات ؟ » فرد عليه قائلا : « لابد أن تبدأ بالمقطوعات الصغيرة قبل أن تؤلف السيمفونيات » فاعترض عليه الشاب قائلا : « ولكنك ألفت السيمفونيات وأنت فى العاشرة من عمرك » فأجاب موزار : « لكنى لم أسأل كيف أؤلفها ! » .

وهكذا كان شوقى ، فقد نظم الشعر فى ميعة الصبا دون معلم ودون مدرسة إذ انسكب الشعر فى روحه بقوة الإلهام وفيض الشاعرية . ويروى أنه عند ما كان طفلا كانت عيناه لا تهبطان إلى الأرض إنما تتصفحان وجه السماء فاضطرت أمه أن تنثر أمامه على الأرض قطعاً من الذهب النضار حتى تتعلق عيناه بالأرض .

ولقد جال شوقى بشعره فى كل غرض ، وقصد كل مقصد ، وأصاب كل معنى وساير المدنية الحديثة فى تطورها . فوصف الطائرة ووصف الدبابة وغيرهما من المخترعات الحديثة كما مزج الثقافة الأوربية بفنه الشعرى وقرض الشعر للكبار كما قرضه للصغار ... فى أسلوب رقيق ، وخيال عذب طليق .

وطال نفسه فى أكثر من قصيدة إلى مالم يطل إليه نفس الكثير من الشعراء ، فما ضعف ولا تخلخل ولا أسف ، وما فتر خياله ، أو وهنت معانيه .

وكانت هذه الإطالة تدفعه إلى استعمال كثير من الألفاظ العربية القديمة التى تدل على تعمقه فى دراسة اللغة واستيعابه لكتب الأقدمين ووفرة محصوله من التراث العربى الأصيل .

على أن هذا لا يعنى أن « شوقى » كان عربى الثقافة فحسب ، إنما كان كثير الاطلاع على الأدب الغربى ، قرأ بالفرنسية لأئمة البيان فى الغرب وأساغ ما استعار من هذا الأدب كما أسهم فى رفعة المسرح العربى فكتب طائفة من المسرحيات.

العربية ، منها : مجنون ليلى ومصرع كيلوبترا وقمبز والست هدى وأميرة الأندلس وعلى بك الكبير وغيرها . ومهما جارت بعض هذه المسرحيات على التقاليد المسرحية المرسومة وحادت عن الفن المسرحى الأصيل فإن شوقى يعد باعثاً جديداً لفن جديد .

ولم يكن المسرح المصرى قبل شوقى يعرف المسرحيات الشعرية إلا لماماً ، إنما كان يعرف أنماطا متعددة من التمثيل حينا والغناء حينا آخر ولكنه لم يكن يستطيع أن يثبت وجوده ككائن حى له خصائصه ومميزاته وله آثاره الفنية الخالدة .

ولم يتح لشوقى أن يزور السودان وأن ينتقل بين ربوعه كما تنقل حافظ إبراهيم وكما سافر خليل مطران غير أن هذا لم يصرفه عن التعلق بالسودان والمحبة لأهله والإيمان بقضاياه وتصوير الأحداث التاريخية الأخرى التى تحدث بين جنباته ، إذ كان شعره صدى للحوادث فى وادى النيل من مصره إلى سودانه ومن شماله إلى جنوبه :

وقد كان شوقى يؤمن باتحاد شطرى وادى النيل . ومن أجل هذا الغرض سطر القصائد الجياد ، وعندما احتفلت البلاد بالذكرى السابعة لوفاة مصطفى كامل نظم شوقى درة لامعة من شعره تناول فيها ما أصاب البلاد من تشاحن صدع وحدتها وشتت شملها ، وقد أشار فى هذه القصيدة إلى استحواذ المستعمر على السودان مما يحز فى النفس ويؤثر فى القلب فقال :

إلام الخلف بينكمو إلاما   وهذى الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكمو لبعض   وتبدون العداوة والخصاما
وأين الفوز ؟. لا مصر استقرت   على حال ، ولا السودان داما

ولما اعتزم سعد زغلول السفر إلى انجلترا للمفاوضة مع حكومتها — وكان على رأس الوزارة المصرية يومئذ — ترصد له شاب فى محطة القاهرة وأطلق عليه النار فأصيب برصاصة أعجزته عن السفر وأبقته فى القاهرة ملازما فراشه أياما أخرى وذلك نتيجة لتعارض آراء الأحزاب السياسية فى المفاوضة ولكن الله نجاه ووقى البلاد شر فتنة كادت تعصف بين الأحزاب فنظم شوقى هذه القصيدة تهنئة له وحضا على الإصلاح العملى وتذكيراً بمنزلة السودان وقناة السويس وهما من مصر بمنزلة الروح من الجسد . . . قال شوقى فى ذلك :

ويا سعد أنت أمين البلا — د قد امتلأت منك أيمانها
ولن ترتضى أن تقد القناة — ويبتر من مصر سودانها
وحجتنا فيهما كالصبا — ح وليس بعييك تبيانها

ولقد كانت الأمة فى ذلك الوقت تلتف حول سعد وتتخذه ساعدها الأيمن فى الخطوب والملمات وإذا كانت الإسكندرية جزءا من مصر وكانت غير الإسكندرية من بلدان الوجه البحرى أو القبلى جزءاً من مصر فكذلك القناة جزء لا يتجزأ منها ، وقل مثل ذلك بالنسبة إلى السودان فقد جمعتنا والسودان ضرورة طبيعية واقتصادية وصلات أنساب ووشائج أرحام هيهات أن تنفصل أو تتفرق ، وهى واضحة وضوح الشمس مشرقة إشراق الصباح المنير ولن تعوزنا الحجة فى تبيانها . . . يقول شوقى :

فمصر الرياض وسودانها — عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه — وريد الحياة وشريانها
وأهلوه منذ جرى عذبه — عشيرة مصر وجيرانها
وتم مصر ينابيعه — كما تم العين إنسانها

وإذا كان القدر قد أتاح للسودان أن ينفصل عن مصر فى التاريخ الحديث ، بعد ما قرر السودان مصيره فإنه لا تزال هناك روابط متينة وأواصر مكينة تربط بين الشعبين الشقيقين ولا تزال القومية العربية . المتأصلة فى هذين البلدين تأصل التاريخ والعريقة عراقة الزمن ... تربط بين هذين القطرين برباط وثيق لا تنفصم عـراه ولا تبلى جدته على الرغم من تتابع الأعوام ومرور الأيام .

—*—

حافظ ورحلته إلى السودان

يعتبر حافظ إبراهيم من أحب الشعراء إلى نفوس المصريين والسودانيين على السواء وكان شعره رصين المبنى ، أما هو فقد عمل ضابطا بالجيش وتدرج فى رتبه العسكرية المختلفة حتى أحيل إلى الاستيداع . وقد أتيح له أثناء عمله فى الجيش أن يسافر إلى السودان مع البعثة العسكرية المصرية ، بيد أن الظروف لم تكن طيبة وكانت الثورة على الانجليز عارمة فاتهم مع نفر من الضباط بالتمرد والعصيان وأحيلوا إلى المحاكمة وحكم عليهم بالسجن مددا مختلفة وأرسلوا إلى مصر ليقضوا فيها فترة السجن .

ولذلك كانت الفترة التى عاشها حافظ فى السودان مريرة بالنسبة إليه غير أنه كان يحمل لأهل السودان المودة والحب والإخلاص والتقدير . وفى ليالى سطيح نجده يحاول أن ينبه الأذهان ويفتح الآذان للخدع البريطانية التى هى أشبه بالقرش الذى يتراءى خيله على صفة الماء حتى إذا ما حاول المرء أن يقبض عليه بيديه هوى إلى الحضيض وقد كتب حافظ من السودان متشوقا إلى أحد أصدقائه فى مصر يقول :

رميت بها على هذا الشباب	وما أوردتها غير السراب
وما حملتها إلا شقاء	تقاضينى به يوم الحساب
جنيت عليك يا نفسى ، وقبلى	عليك جنى أبى فدعى عتابى
فلولا أنهم وأدوا بيانى	بلغت بك المنى وشفيت ما بى
سعيت وكم سعى قبلى أديب	فآب بخيبة بعد اغتراب
وما أعذرت حتى كان نعلى	دما ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتنى الشمس عبداً	صبيغا بعد ما دبغت إهابى
وحتى قلم الإملاق ظفرى	وحتى حطم المقدار نابى
متى أنا بالغ (يا مصر) أرضا	أشم بتربها ريح الملاب

رأيت ابن البخار على رباها يمر كأنه شرخ الشباب
كأن بجوفه أحشاء صب يؤجج نارها شوق الإياب
إذا ما لاح ساءلنا الفيافى أبرق الأرض أم برق السحاب ؟

وكتب إلى الأمام محمد عبده فى السودان يصور وحدته ووحشته واستبداد ذلك الجبار العنيد كتشنر باشا سردار الجيش المصرى إذ ذاك ، وكان بينه وبين حافظ نفور وجفوة حتى يقال إنه لغضبه على حافظ كتب أمام اسمه (لا يرقى ولا يرفت) .

كتب حافظ إبراهيم إلى الإمام محمد عبده يقول : « لقد حللت السودان حلول الكليم فى التابوت والمغاضب فى جوف الحوت بين الضيق والشدة والوحشة والوحدة لا بل حلول الوزير فى تنور العذاب والكافر فى موقف يوم الحساب بين نارين نار القيظ ونار الغيظ » .

ويقصد حافظ إبراهيم من هذا الحديث أنه حل فى السودان حلول النبي موسى عليه السلام فى تابوت فى اليم أو أنه مثل يونس عليه السلام الذى التقمه الحوت ثم خرج من جوفه ، بل إنه حل حلول الوزير أبى جعفر محمد بن عبد الملك الزيات وزير الخليفتين المعتصم بالله والواثق الذى كان يضع من يأمر بقتله فى تنور من النار شديد الأوار .

ويمضى حافظ إبراهيم يسرد للامام محمد عبده المظالم التى يلقاها من كتشنر والآلام التى يحسها نتيجة لذلك :

« واليوم أكتب إليه وقد قعدت همة النجمتين وقصرت يد الجديدين عن إزالة ما فى نفس ذلك الجبار العنيد فلقد نما ضغنه على وبدرت بوادر السوء منه إلى ، فأصبحت كاسر العدو وساء الحميم وآلامى كأنها جلود أهل الجحيم كلما نضج منها أديم تجدد أديم وأمسيت وملك آمالى إلى الزوال أسرع من أثر الشهاب فى السماء ودولة صبرى إلى الاضمحلال أحث من حباب الماء ، فنظرت

فى وجـوه تلك العباد وإنى لفارس العين والفؤاد فلم تقف فراستى على غير بابك » .

وهكذا مضى حافظ إبراهيم يستنجد بالشيخ الإمام محمد عبده مصورا ذلك الاضطهاد الذى لاقاه من كتشنر والذى لولاه لـكانت أيامه فى السودان كلها سعادة وهناء وعزا ورخاء . وقد كان هذا الشاعر صاحب حاسة أدبية مرهفة حلوة ، اختلف ذات يوم مع خليل مطران أيهما أجمل أو بعبارة أصح أيهما أقبح من الآخر فـكان حافظ يدعى أنه أجمل منه ومطران أقبح منه . وطال الخلاف بينهما حتى اتفقا على أن يحتـكما إلى الشاعر إسماعيل صبرى وكان شاعراً بارعاً يشغل منصب النائب العام فذهبا إليه وشرحا دعواهما ، وبعد أن أطال النظر فى وجه كل منهما أعلن ختام المحاكمة وأصدر حـكمه يقول : « حافظ إبراهيم أجمل قرد وخليل مطران أقبح إنسان » وعند ذلك انصرف كل واحد منهما وعنده أنه حكم له على صاحبه ، وكان حافظ يقول : « لقد حكم إسماعيل صبرى لى لأنه قال أجمل قرد وقد وصفنى بالجمال على كل حال فى حين وصف مطران بالقبح » .

وكان حافظ إبراهيم حافظا لـكثير من أشعار القدامى والمحدثين وكان يقرظ بشار بن برد ويروى من شعره ويطنب المدح فى أبى نواس وكان يعجب بقوله :

أخذت بحبل من حبـال محمد ... أمنت به من طارق الحدثان
تغطيت من دهرى بظل جناحه ... فعينى ترى دهرى وليس يرانى

وكان يثنى على صريع الغوانى مسلم بن الوليد ويرفع من قدر أبى تمام الطائى ويصفه بأنه شاعر العظائم ، كما كان يحب البحترى ويعتبره سيد المطبوعين وأقدر الشعراء على حسن التأدية وكان يقول « إذا تلوت شعره ظننت أننى أقعد فى حضنه أداعبه ويداعبنى وأفهم عنه ويفهم عنى بل أحيط بما فى نفسه كما يحيط بما فى نفسى . . وكان حافظ صادق الشعور ، متدفق الإحساس ولا سيما فى شعر الرثاء وقد رثى عدداً كبيراً من أصدقائه بدمع هتون وزفرات

حارة تقطع نياط القلوب لما كان بينه وبينهم من صلة قوية متينة وفى هذا يقول الشاعر :

ولى الشبـاب وجازتنى فتـوته	وهدم السقم بعد السقم أركانى
وقد وقفت على الستين أسألهـا	أسوفت أم أعدت حر أكفانى
شاهدت مصرع أترابى فبشرنى	بضجعة عندها روحى وريحانى
كم من قريب نأى عنى فأوجعنى	وكم عـزيز مضى قبلى فأبكانى
إنى مللت وقوفى كل آونـة	أبكى وأنظم أحزانا بأحـزانى
إذا تصفحـت ديوانى لتقرأنى	وجدت شعر المراثى نصف ديوانى
فأنزلونى مـكاناً أستجم به	وينجلى عن فؤادى برح أحزانى

وقال حافظ إبراهيم :

رويـدك حتى يخفـق العلمـان	وتنظـر ما يجـرى به الفتيـان
فما مصر كالسودان لقمة جائع	ولـكنهـا مـرهونـة لأوان
دعـانى ومـا أرجفنا باحتياله	فإنى بمـكر القوم شق زمانى
وإن غاصت الأمواه عن كل مزبد	وخرت بروح الرجم للحدثان
وعاد زمـان السامرى وربه	وحـكم فى الهيجـاء كل يمانى
هناك اذكروا يوم الجلاء ، وتبهوا	نياما ، عليهم ينـدب الهرمان

كتب حافظ هذه الأبيات فى فترة مظلمة من تاريخ القطرين الشقيقين وكان الانجليز يمدون يد البطش إلى الأهالى ويحاولون بشتى الطرق استنزاف ثروات السودان والاستحواذ على خيراته . ولـكن الله لم يشأ لهم الانتصار فقد وقف لهم التاريخ بالمرصاد وهبت الحركة للبارك فى وادى النيل وكان من أثرها استقلال السودان وتخلصه من نير الإنجليز بعد استفتاء شعبى عام . وكان السيد الرئيس جمال عبد الناصر يقف خلف هذا الانتصار العظيم الذى حققه القطر الشقيق فمحا هذه الصفحات السود ، وأشرقت صفحات بيض مليئة بالعزة والـكرامة والمجد والنصر .

نظرات في شعر الشيباني

التيجانى يوسف بشير شاعر ممتاز من شعراء السودان ولد فى أم درمان سنة ١٩١٢ واسمه أحمد ولقب بالتيجانى تيمنا بصاحب الطريقة التيجانية ووالده هو الشيخ يوسف بشير ابن الإمام جزرى الكتيابى .

حفظ القرآن فى الخلوة (أو المكتب) على يد عمه الشيخ محمد القاضى الكتيابى ثم التحق بمعهد أم درمان العلمى وتخرج منه ثم اشتغل بالصحافة والأدب إلى أن انتقل إلى رحمة الله عام ١٩٣٧ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .

ويمتاز شعر التيجانى بالرقة والعذوبة والسلاسة والسهولة والحلاوة والفحولة ومن يطيل النظر فى شعره يزيده استهواء وأسرا ويتملكه إعجابا وسحرا .

ويعد التيجانى من أرق الشعراء فى العصر الحديث وله ديوان جمع من الشعر أعذبه هو ديوان « اشراقة » وقد صدره بهذه القصيدة :

قطرات من الندى رقراقة ... صفق البشر دونها والطلاقة

ضمنتها من بهجة الورد أفوا ... ف ومن زهر القرنفل باقه

نثرت عقدها أصابع من نو ... ر ترسلن خفة وأناقه

رب وشى نمقن فى صفحة الو ... د ونضرن فى الربى أعماقه

ومصابيح أسرجتها يد الشم ... س وضاء فى زهرة خفاقه

يتقطرن أنجما فى أكالي ... ل من الزهر أسرجت أوراقه

قطرات من الصبا والشباب ال ... غض منسابة به منساقه

ورهام من روحى الهائم الو ... لهان أمكنت فى الزمان وثاقه

ظل يهفو إلى السماء ويشكو ... لوعة الروح ها هنا واحتراقه

يتحدرن في معابد أيا مي حنينا أسميته « اشراقه »
قطرات من التأمل حيرى مطرقات على الدجى مبراقه
يترسلن في جوانب آفا ق شعاعا أسميته « إشراقه »

ويمتاز شعر التيجانى بنزعة صوفية صادقة وخيال طلق جميل وديباجة عذبة أنيقة وعبارة حلوة رقيقة ومن شعره فى التصوف قصيدة « الصوفى المعذب » وقد جاء فيها .

هـــذه الذرة كم تحـــ مل فى العـــالم سرا
قف لديها وامتزج فى ذاتهـــا عمقـــا وغـــورا
وانطلق فى جـــوها المملو ء إيمـــــانا وبرا
وتنقـــل بين كبرى فى الذرارى وصغـــرى
تر كل الكون لا يفـــ ـــتر تسبيحا وذكرى

وقد ذهب الشاعر فى هذه القصيدة « الصوفى المعذب » مذهب الفلاسفة الذين يؤمنون بوحدة الوجود ، ويستخدمون فكرة الحب الإلهى فيما يسجلونه من دعوات صادقة إلى الله وابتهالات إلى الذات العلية ، وفى ذلك يقول التيجانى :

الوجـــود الحـــق ما أو سع فى النفس مـــداه
والسكون المحض ما أو ثـــق بالروح عـــراه
كل ما فى الكون يمشى فى حنـــاياه الإله

هذه النملة فى رقتها رجع صداه

هو يحيا فى حواشيهـــا وتحيـــا فى ثراه
وهى إن أسلمت الرو ح تلقتهـــا يداه
لم تمت فيها حياة الله إن كنت تراه

وزخر ديوان «إشراقة» بصور رائعة من تقديس الجمال الالهى والجمال البشرى وجمال الطبيعة ويدل دلالة واضحة على أن صاحبه شاعر مرهف الحس رقيق الشعور صافى الوجدان ينفعل بكل ما يرى ويسمع ويلمس وتتراءى هذه الانفعالات فى نفسه ثم تنعكس على شعره فيستهوى القلوب ويطرب الأسماع

وعبدناك ياجمـال وصغنـا لك أنفاسنا هياما وحبا
وحبوناك ما يزيدك بالغز وضوحا وأنت تفتأ صعبا
وذهبنا بما يفسر معناك بعيداً وأنت أكثر قربا
من ترى وزع الفاتن يا حسن ومن ذا أوحى لنا أن نحبا
من ترى علم القلوب هوى الحسن وقال اعبدى من السحر ربا
إنه صانع القلوب التى تنـ ـصب فى قالب المحاسن صبا

فالتيجانى يؤمن بأن وراء هذا الجمال البشرى والجمال الطبيعى جمالا أسمى وأعلى من الجمال الدنيوى ، هو الجمال الربانى الذى يوحى ويلهم والذى يصنع القلوب التى تخفق للجمال وتهتز للسحر .

وكلما رنا ببصره إلى الجمال الإنسانى أدرك خالق هذا الجمال فرفع بصره إلى السماء فى خشوع وابتهال وطفق يسبح للواحد القهار الذى خلق آيات الجمال فإذا فيه ضلال لعقل وهدى لجنون :

إيه طير الشباب من صاغ هذا الـ حسن فى زهوه وفى استكباره ؟
من أذاب الضياء فيه ومن نغـ ـم شجو الهوى على أوتاره ؟
من رمى من أصاب من صور الفتـ ـنة من زرها على أزراره ؟
حرت : ما الحب ؟ ما الهوى ؟ ما التعابير اللواتى ينبن عن أسراره ؟
نظرة كالصلاة . . زلفى إلى الله وقربى لعزه واقتداره . . . . . .

وهكذا كانت نفس التيجانى تلوذ بالله تعالى كلما شاهدت الجمال لأنها تعتقد

أنه وسيلة إلى عبادة الله ، والتسبيح له ، واللجوء إليه وهو فى هذا الشعور يرقى إلى مصاف الشعراء المتصوفين الذين قادهم الحب إلى أعلى مراتب السمو الروحى . على أن نفس التيجانى كانت تموج بالأسى والألم ، أو البهجة والفرح وتضطرب فيها العواطف وتصطخب . . يقول الشاعر :

نفسى تطـاير كالشعا ع وتستحيل إلى أنين
وتذوب وجداً فى صبا بتها وتخفت كالأنين
وترف فى وجه الحيا ة وبين طيات السنين

كما يقول فى موضع آخر :

هى نفسى من الندى قطرات لم تنلها يد الزمان بخلط
هى فى صفحة الشباب قوى تز خر بالحب أو تموج بسخط
هى قسطى من السماء فما أضيـ ـع فى العالم الترابى قسطى

وهذه الحيرة التى تتراءى فى شعر التيجانى وهذه الرنة الحزينة التى تشيع فى أبياته هى التى أضفت الجمال على فنه وجعلته ينبض بالحياة ويجيش بالشعور ويخفق بالوجدان ولم تجعله معرضاً للصور الموشاة التى لا حياة فيها ولا روح إنما جاء كل بيت من أبياته وكل مقطع من مقاطع شعره بفكرة جديدة وبإحساس خاص .

وكانت صور الطبيعة فى شعر التيجانى حافلة بالمشاعر ، كما فى قصيدته « فى محراب النيل » التى جاء فيها :

أنت يا نيل يا سليل الفرا ديس ، نبيل موفق فى مسابك
ملء أو فاضك الجلال فمرحى بالجلال المفيض من أنسابك
حضنتك الأملاك فى جنة الخلد ورفت على وضىء عبابك
وأمدت عليك أجنحة خضرا وأضفت ثيابها فى رحابك
فتحدرت فى الزمان وأفرغت على الشرق جنة من رضابك

بين أحضانك العراض وفى كفك تاريخه وتحت ثيابك
عجباً أنت صاعداً فى مراقيـ ـك لعمرى أو هابطاً فى انصبابك
مجتلى قوة ، ومسرح أفكا ر ومجلى عجيبـة كل ما بك

وامتاز التيجانى كذلك بصوره المتابعة الخلابة وتجسيمه للمعانى واختياره للتراكيب الموسيقية الجذابة كالألحان المبهمة والشمس الخمرية والقمر العازف والضفاف السحرية وحجرات الذهب وسبائك الفضة وما إلى ذلك من عبارات فهو يقول فى قصيدة « مدينة الخرطوم » :

مدينـة كالزهرة المونقـة تنفح بالطيب على قطرها
ضفافهـا السحرية المورقة يخفق قلب النيل فى صدرها
يحسـبها أغنيـة مطرقة نغمهـا الحسن على نهرها
مبهمـة ألحانها مطلقـة رجعها الصيدح من طيرها
وشمسهـا الخمرية المشرقـة تفرغ كأس الضوء فى بدرها

ويقول الأستاذ عبدالمجيد عابدين أحد أساتذة النقد بكلية غوردون بالخرطوم : « إن الشاعر التيجانى استوحى هذه العبارات من الشاعر على محمود طه » ونحن لا نستبعد هذا القول لأن من يتأمل فى شعر على محمود طه يجده حريصاً على أمثال هذه الصورة التى تمتع الحواس والأذهان .

وكان الشاعر يعتقد أن جمال الشعر وروعة الصور الأدبية لا تخضع لشىء سوى الذوق ومن أجل ذلك أنكر على النقاد حرصهم على استخدام العقل فى كل ماينقدون وقال فى إحدى مقالاته بمجلة « الفجر » السودانية (عدد نوفمبر سنة ١٩٣٤) :

« إذا توقف فهم الأشياء فى الذوق وانقسمت الأنفس فى داخلها إلى مذاهب وشيع وتناصرت العواطف والأعصاب وتفاعل العقل والقلب ، واضطرب

الوجود الداخلي وتعددت مقاييسه ، وتبلدت نفوس وشطت نفوس ، وكان جفاف وكان لين ، وكان تناكر وكان ائتلاف . هنالك يصبح سلطان العقل ضيقاً محدوداً لا أثر له في حكم يصدره أو أمر بيديه وإلا كان سادراً في ضلاله متى حاول أن يقف من الذوق موقف الهيمنة والسلطان . وهل يمكن أن يكون الذوق شيئاً تتحكم فيه أقيسة المنطق أو ضربا من العلوم النظرية التي يخضعها العقل لسلطانه فينفذ منها إلى أقصى ما تصل إليه أطرافها من دقة وعمق ؟ لا لن يكون ذلك ولن تحلم القوى العقلية نفسها أن تستحيل يوماً إلى قوى روحية بحتة » .

ثم يوجه التيجاني أشد عبارات اللوم لهؤلاء النقاد الذين يحاولون أن يخضعوا الذوق لأحكام العقل ومقاييس المنطق وحدود العلم ، ويرى أنهم يظلمون الشعر الحديث ومناهج الشعر الحديث فينظرون إلى الحركة الأدبية نظرة شك وارتياب .

وصور التيجاني في شعره الحياة السودانية تصويراً صادقاً صريحاً ومثال ذلك قصيدته في « الخلوة » أو « الكتاب » التي تعرض فيها لفترة من فترات صباه فقال :

هب من نومه يدغدغ عيـ	ـنيه مشيحاً بوجهه في الصباح
ساخطاً يلعن السماء وما في الـ	أرض من عالم ومن أشباح
حنقت نفسه وضاقت به الحيـ	ـلة واهتاجه بفيض الرواح
ومشى بارماً يدفع رجليـ	ـه ويبكي بقلبه الملتاح

فهو في هذه القصيدة يصور حالة الصبي الذي يستيقظ من نومه وفي عينيه السكرى فيسعى متثاقلا متباطئاً كارها لهذه اليقظة ساخطاً على حياته ، متبرماً بنظام معيشته ، راغباً في النوم ، غير أنه يجر رجليه جراً حتى يبلغ الخلوة التي يتعلم فيها مع إخوانه الصبية وهو — في واقع الأمر — يبكي وينتحب من قلبه الحزين .

كما صور التيجانى عادات السودانيين فى بعض شعره ، وجلا التيجانى مناظر الطبيعة فى السودان ، وتعد قصيدته فى جزيرة «توتى» — وهى جزيرة تقع شمالى الخرطوم وتحدها أمدرمان من جهة الغرب والخرطوم البحرى من جهة الشرق — من أبدع ما نظم التيجانى من شعر حيث صورها تستقبل أضواء الصباح الباسم وهى راقدة فى حضن النيل الجميل ، ينبعث منها أريج عاطر ، وشذى فواح ، وتشدو البلابل على أفنانها وتترنم بين أدواحها .

يا درة حفها النيل واحتواها البر
صحا الدجى وتغشاك فى الأسرة فجر
وطاف حولك ركب من الكراكى غر
كم ذا تمازج فن على يديك وسحر
يخور ثور وتثغو شاة وتنهق حمر
والبهم تمرح والزرع مونق مخضر
تجاوب اللحن والطحن والثغاء الحر
وهب صوت التواعير ، وهو للشجو مر

وتراءت فى شعر التيجانى فضلا عن هذه الصور الرائعة فى وصف الطبيعة صور وطنية باهرة تأخذ النفس وتأسر القلب ومن ذلك قصيدته المسماة « ثورة » التى عبر فيها عن شكاته الصارخة وتعرض فيها لذكريات الطفولة والصبا وما تغرسه هذه العهود الجميلة من حب الوطن حتى إذا ما انتهى من ذلك عبر عن ثورته على بنى وطنه لعدم تخلصهم من نير الأجنبى فقال :

وطنى فى الصبا الدمى والتما	ثيل ونفسى ومن أحب وخدنى
هـذه يا أبى تصاوير ما تبـ	رح دنيـاى أو تزايل كونى
يصنع الغاب مزهرى ويشيد الرمـ	ـل عرشى ، ويبعث اللهو أمنى
هى دنيـا الصبى لا جنـة	الشيخ تفيض النعيم من كل لون
قف بنا نملأ البلاد حماسا	ونقوض من ركنها المرجحن

هى للنازحين مورد جود وهى للأهلين مبعث ضن
يستدر الأجانب الخير منها والثراء العريض من غير من
أمطرتهم بلادنا فتعالى ابن « أثينا » واستكبر «الأرمنى»

وصفوة القول أن التيجانى يوسف بشير يعد من أرق شعراء العصر الحديث وقد أخذ هذه الشاعرية عن فطرة وموهبة ، ولولا أنه عاش فترة قصيرة من العمر ومات وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، لكان له أثر أكبر فى تاريخ الأدب العربى الحديث .

*

النيل في الشعر السوداني

كان النيل ولا يزال ملهم الأدباء ووحى الفنانين ومبعث الشعر ومنبع الرزق والخير . فالنيل يجتاز جنوب السودان كما يجتاز وسط السودان وشمال السودان وتأثيره فى كل منطقة من هذه المناطق كالضوء من الشمس والعبير من الزهور ينشر الخصب حوله .

فهو فى جنوب السودان يكون حوض بحر الجبل والزراف والغزال ويتألف معظمه من سهول منبسطة يحف بها من الجنوب السفح الشمالى لبعض البحيرات الغربية لهضبة الحبشة وصوب الغرب حتى المرتفعات التى تفصل حوض الكونغو عن النيل .

وتربة هذه المنطقة على نوعين ففى الجهات الجنوبية الغربية تكثر التربة الطينية الحمراء وهى أوفر خصباً من تربة هضبة البحيرات أما تربة الحوض فصلصالية سوداء رقيقة الحبيبات تكثر بها المناقع .

هذا هو الاقليم الذى يكونه النيل فى جنوب السودان ، أما ما يكونه فى وسط السودان فهو حوض البحر الأبيض (الحوض الأدنى للبحر الأزرق) ثم إقليم دارفور وكردفان وجبال نوبا ثم إقليم شمال السودان ويطلق اسم النيل النوبى على الجزء الممتد من الخرطوم إلى أسوان فى القطر المصرى ويمتاز النيل النوبى بشدة الانحدار ولا سيما فى مناطق الجنادل والخنادق .

وقد كان النيل فى جميع هذه المناطق الطبيعية على اختلاف حظوظها من الخصب والحياة مصدر إلهام ووحى للأدباء والفنانين .

وقد كتب التيجانى يوسف بشير فى محراب النيل يقول :

أنت يا نيل يا سليل الفرا ديس نبيل موفق فى مسابك

ملء أوفاضك الجلال فرحى بالجلال المفيض من أنسابك

حضنتك الأملاك فى جنة الخلد ورفت على وضىء عبابك
وأمدت عليك أجنحة خضرا وأضفت ثيابها فى رحابك

وأخذ التيجانى يوسف بشير بعد ذلك يصور تلك الأمجاد التى أحاطت بوادى النيل . ويعطينا التيجانى صورة وضاءة عن جماله تأخذ بمجامع القلوب فهو يجد فى كل قطرة منه سحراً وزهراً منثوراً وهو يجد فى اسم النيل حروفا تشع منها بواعث الحياة حتى إذا ما انتهى من ذلك التصوير أخذ يخاطب النيل قائلا :

أيها النيل فى القلوب سلام الخـ ـلد وقف على نضير شبابك
أنت فى مسلك الوفاء وفى الا أ نفاس تجرى مدويا فى انسيابك

وقد كتب الأستاذ عبد القادر إبراهيم قصيدة على غرار هذه القصيدة سماها « أنت يا نيل » استهلها بقوله :

أنت يا نيل حبذا إشراقك ومعين تحفه أشواقك
ونعيم وروعة وجلال وخلود تضمه آفاقك
وهبات تمدها وحياة وسمات أحاطهن رواقك
حبذا كل ما بساحك ينمو من جمال تضمه أطواقك
نحن أبناء ضفتيك وإنا والذى علم الهوى عشاقك

وقد أفاض عبد القادر إبراهيم بعد ذلك فى وصف الطبيعة على النيل فصور للروج الخضر والضفاف والسوائم وهى ترعى بين جنباتها والطير والبلابل وهى تصدح فى أرجائها إلا أنه بعد ذلك أخذ يعتب على النيل لأن المستعمر الدخيل يرتوى بمياهه ويعيش على ضفافه ويتمنى أن يتخلص وادى النيل من هذا القيد ليعيش حراً كريماً .

وكتب الشاعر السودانى عبد الله عبد الرحمن قصيدة فى وصف الطبيعة منها قوله يصف النيل فى عاصمة النيل الأزرق :

رف فيه النبات حتى كأنى من وراء الزجاج أرنو إليه

وكأن الدخان من جانب الشط   مشيب يلوح فى عـارضـيه
يتلقى الأديب منه قوافى الشعر   رقراقة على حافتيه

* * *

وظلال الجميز والطلح والسدر   تراءى على المروج الوسيعـة
ووجوه النبات تحـلو وتبـدى   صورا للحيـاة كانت بديعـة
ليس أدعى إلى السرور كروض   خلعت حسنها عليه الطبيعـة

وهناك قصائد جميلة حافلة بالتشبيهات البديعة والاستعارات اللطيفة والصور المتلاحقة ، كتبت على غرار القصائد الأندلسية التى عرف بها ابن هانىء وابن خفاجة الأندلسى ومن لف لفهما من شعراء الأندلس .

وصف شاعر جبلا شاهقا يجثم على الشاطىء بدنقلة فقال :

قائم فوق شاطىء النهر   ذاهل عن حوادث الدهر
اتصلت بالسماء قمتـه   ودونها عز مطلب الطير
تلتف أشجاره وقد قصرت   من حوله كالجنود فى الأسر
كأنه قد أقام محتفظا   على رمال تلوح كالقبر

واستخدم شعراء السودان الغزل وارتشفوا كئوس الحب دهاقا على شطئان النيل غير أن الغزل عند بعضهم يمتزج بالفخر امتزاجا فالشاعر لا يغفل عن أن يذكر المحبوبة بأنه ابن النيل وابن النيل ابن الغر الميامين كقول صالح عبد القادر :

ماذا رأت عيناك هـذى لمتى   سوداء وهى هوى العيون السود
وأنا ابن وادى النيل لو فتشتنى   تجدين فى بردى بأس أسود
ويروقنى ورد الخـدود ولفتة   الرئم المهفهف وابتسام الغيـد
ويلذ لى حلو الحديث وطيبه   وسماع شادية ونغمة عود

ولقد كانت المشاريع الكبرى على النيل ملهمة لكثير من الشعراء كخزان سنار الذى تم إنشاؤه فى سنة ١٩٢٠ ويقع عند بلدة مكوار على بعد ثمانية كيلومترات من سنار والغرض من بنائه هو رى أراضى الجزيرة بالسودان ، الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق والأصل فى المشروع هو توفير المياه

لری ۳٠٠ ألف فدان ولكن المساحة تضاعفت فی السنوات الأخيرة إلى ما يزيد على ثلاثة أمثالها وقد وقف الشاعر السودانی أبو بكر محمد عليم صاحب كتاب الدر المخزون فی شرح رسالة ابن زيدون وقفة مشهورة على هذا المشروع فقال :

ألا هل رأت عيناك مكوار بعدما أقامت يد الإصلاح فی نهره السدا
كأن سليمان الحكيم أقامه بتسخير جن يسردون الصفا سردا
يظل زمام النيل طوع مراده يكلفه جزرا ويرسله مدا
وصير من أرض الجزيرة روضة تخال بساطا سندسيا بها امتدا
لقد عد فرعون الكنانة نفسه إلها لأن النيل من تحته امتدا
ولو عاش حتى شاهد اليوم ماأرى وما أعمر الخزان أزرى بما عدا

وقد كان أثر النيل فی الأدب الشعبی لا يقل عنه فی الأدب العربی الفصيح ، وشاع فی الأمثال والحكم فقالت بنت مكاوی :

إن طال الوبر واسيه بالجزة واما عم نيل ما فرخت وزة

وتشير القصيدة التی منها البيت السابق إلى أن الأتراك تجاوزوا كل حدود المعقول ، ولهذا يجدر أن يأخذوا درساً قاسياً لقاء ما قدموا للبلد من تحقير وإذلال فلا بد من ثورة عاجلة تضع الأمور فی نصابها وتبتر يد الطغيان بترا وتحز شأفته كما تحز السكين الوبر وكذلك النيل . . إذا لم يصخب عبابه وإذا لم تجش أمواجه ويتناثر زبده وتمتلىء شطئانه فكذلك لن يفرخ الأوز . وهذا البيت هو أحد الأبيات التی قالتها امرأة تدعى بنت مكاوی تحرض المهدی على قلب الحكم وهو وقتذاك يستجمع حوله من الشيعة والأنصار من مهد لحركة المهدية الثائرة ومن مكن له من الجهر بدعوته الجريئة لتخليص البلاد من رهبة الاستعباد التركی وظلم الأتراك واستعبادهم .

كما كان أثر النيل باديا فی الأغانی الشعبية فقال سيد عبد العزيز فی قصيدته « يا أنة المجروح » .

مصرية في السودان بي حب إليك أبوح

يا عنب جناين النيل أعني منه صبوح

وأنشد فؤاد الضال بين الرياض مذبوح

وأرى الهلال في ظلال تلك الخميلة يلوح

كما قال الشاعر القومي السيد مصطفى بطران في قصيدته (ياسلام يا جميل) التي يلتمس فيها من صاحبه أن يستيقظ والناس نيام والسكرى ملم بمعاقد الأجفان ليتهادى معه على ضفة النيل وليستمتعا معا بتغريد البلابل :

عبر كلامي معاك يا جميل لحة

قوم معاي وميل قامتك السمحة

كل شيء ميسور والظروف سامحة

منظر النوار يغني عن أنوار والظلام يمحي

ويك شواطيء النيل إلى السرور طامحة

لابسة بدر التم والنجوم لامحة

شتلة الياسمين مايلة بي صفحة

ميلا بيشجيك ومن شذاها يجيك كل هين نفحة

وهكذا كان النيل وحيا للشعراء في الأدب العربي الفصيح ، وفي الأدب الشعبي الرقيق ولا غرو في ذلك فهو نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات . ولم يكن النيل في السودان فحسب مثار الشعر عند السودانيين إنما كان النيل في مصر مبعثا لشعرهم كذلك ، فإذا هبطوا مصر وجاسوا خلال ديارها سحرتهم معالمها وسبت قلوبهم آثارها وبقي أثر النيل ماثلا في مخيلتهم باقيا في أذهانهم متجسما في صور أشعارهم كقول محمد سعيد العباسي :

فارقت مصر ذاكرا أرجاءها والهرما

والنيل والجزيرة الفيحاء والمقطما

ربوع خير طالما أسدت إلى أنعما

التصوف في الشعر السوداني

قيل : إن الصوفى من صفا قلبه لله . وعرفه بندار بن الحسين بقوله : الصوفى من اختاره الحق لنفسه فصافاه وعن نفسه فبراه وقال بعضهم : الصوفى من لبس الصوف على الصفا ، وأطعم الهوى ذوق الجفا ، وكانت الدنيا منه على القفا ، وسلك منهاج المصطفى . وعرفه سهل بن عبد الله التسترى : الصوفى من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر .

وإن المتطلع إلى الأدب السودانى يجد أن هناك كثيراً من الشعراء الذين نهجوا منهج التصوف فى شعرهم . وقد انتشرت الصوفية فى أيام الفونج فانتشرت المدائح فى الشعر الشعبى ولم تتحقق فى نشأة تلك المدائح صور البطولة فى الشعر فحسب بل تحققت فى الغناء والترنيم كذلك ، فصاروا يتغنون بهذه المدائح طبقاً للغناء الصوفى المسمى « الكريز » ويصف أحد المؤرخين الكريز بقوله : إنه صدى ذكر أهل الطرق بالأصوات العالية وهم يرونه حسناً يثابون عليه ، والعلماء يجعلونه من البدع المحرمة والله أعلم بالصواب فقد عمله قوم صالحون وتركه قوم صالحون .

وكما انتشر التصوف فى الشعر الشعبى انتشر فى الشعر الفصيح ولم يكن الفارق بين الشعرين مقصورا على اللغة وحدها بل كان متمثلا فى منهج الشعر نفسه وسلوك الشاعر فى قصيدته . فالشعراء الشعبيون كانوا لا يحرصون على شىء قدر حرصهم على تصوير بطولة الشيخ تصويراً معجباً غريبا ينزع إعجاب الناس وتقديرهم أما الشعراء الذين كانوا يقرضون الشعر باللغة الفصحى فإنهم كانوا لا يرضون على شىء قدر حبهم اقتفاء السلف الصالح والتمثل بشعرهم ومعارضة قصائدهم وقد عارض الشيخ موسى الصوفى تائية ابن الفارض فقال :

سلام على قوم إذا ذكر اسمهم ... تهتك أستار إليهم برجفة
تلألأت الأنوار من نحو خالق ... بوقت قيامى أو جلوسى بخلوة

كما عارض الشيخ طاهر المجذوب ميمية البوصيرى .

فقال :

هل ضاء برق دجى الأسمار من إضم   أم نور ليلى بدا ثغراً لمبتسم
أم تلك عين المها تمشى على وهن   ترمى بلحظ عيون كل ذى سقم

وقد لجأ الشعراء السودانيون المتصوفون إلى تشطير شعر السلف الصالح كما كتب التيجانى يوسف بشير الشاعر الحديث قصيدة رائعة بعنوان « الصوفى المعذب » جاء فيها :

هـــــــذه الذرة كم تحمل فى العالم سرا
قف لديها وامتزج فى ذاتها عمقا وغورا
وانطلق فى جوها المملو ء إيـــــــاناً وبرا
وتنقل بين كبرى فى الذرارى وصغرى
تر كل الـكون لا يفـ ـتر تسبيحاً وذكرى

وقد أكثر الصوفيون المتأخرون من الشعر الصوفى والمدائح النبوية التى لم تنشأ إلا بعد عصر الفونج حيث نشطت فى ذلك العهد الدعوة الإسلامية وانتشرت الرغبة فى نشر الإسلام ودخل الناس أفواجاً واستقبل الفونج الإسلام استقبالا حسنا وقال «عمارة» ملـكهم للسلطان سليم العثمانى : إنى لأعلم ما الذى حملك على حربى وامتلاك بلادى فإن كان لتأييد دين الإسلام فإنى وأهل مملـكتى عرب مسلمون ندين بدين الله وإن كان لغرض مادى فاعلم أن أكثر مملـكتى عرب بادية وقد هاجروا إلى هذه البلاد فى طلب الرزق ولا شىء عندهم تجمع منه جزية سنوية .

وقد كان الحجاز منبعا للحركة الدينية العلمية كما كان الحجاج السودانيون يشجعون علماء الحجاز على الرحلة إلى بلاد الفونج وكان هؤلاء العلماء لا يألون جهداً ولا يدخرون وسعا فى نشر التعاليم الإسلامية والتعمق فى الدراسات الدينية

وقد بلغ التدين ببعضهم درجة التصوف ومحاربة أهواء النفس واتباع السنة والزهد فى الدنيا ومتاعها والانقطاع إلى الله ودوام التفكر .

كما أن مصر أسهمت فى نشر الدين الإسلامى بشكل ملحوظ وكان الأزهر الشريف قبلة للأنظار وكان الملك «بادى الأول» المعروف بسيد القوم سنة ١٦١١ م على صلة بعلماء مصر وكان يكرم وفادتهم ويسرف فى الاحتفاء بهم . وكذلك كانت الوفود الإسلامية تأتى من المغرب والعراق والحجاز وقد حضرت هذه الوفود إلى السودان بما لها من معتقدات دينية صوفية فغرست فى نفوس السودانيين حب التصوف والفناء فى الله .

وقد اهتم الصوفيون المتأخرون بالمدائح النبوية فكانوا ينظمون السيرة ويؤلفون دواوين من الشعر بأكملها فى تلك المدائح كما فعل السيد محمد عثمان الميرغنى فى ديوانه « النور البراق فى مدح النبى المصداق » والشيخ أبو القاسم أحمد هاشم فى ديوان « روض الصفا فى مدح المصطفى » والسيد أحمد بن إدريس فى ديوان « رياض المديح » . وكانت هذه المدائح النبوية تفيض ورعا وتقى وتسيل ابتهالا إلى الذات العلية الكريمة . قال الشيخ ابراهيم أحمد الهاشم :

عمر فؤادك بالتقى يا صـــاح	فعساك تحظى بالمنى يا صـــاح
واذكر ذنوبك فى الصباح وفى المسا	وأطل بكاك ولا تخف من لاح
وكن الرقيب على عيوبك واستعد	قبـــل الممات بغـــدوة ورواح
يا سوء حظى من عظيم جرائمى	وتراكم العما وسـوء مزاحى
يا أفضل الرسل الكرام ويا منى	روحى وأحشائى وكنز صلاحى
أنت الذى لولاك ما كان الكما	ل مشاهدا بعشية وصـــباح
أنت الذى بك أشرقت شمس الضحى	وبك القـــلوب تنير كالمصباح

وقال الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم يمدح الرسول :

أمحمـــد ولأنت أكرم مرســـل	وأحق من بمديحه يتقـــرب

أحمد ما أنت إلا رحمـــة وبشارة لك كل خير ينسب
وعليك صلى الله ما هبت صبا أو ما ترنم فى مديحك مطرب
وعلى صحابتك الأماجد كلهم ما تم بدر أو أضاء الـكوكب

وقد جعل الصوفيون شعرهم مادة للفخر كما جعلوا الفخر مادة لبث تعاليمهم الصوفية وأذكارهم ونبذهم للحياة ، كما فى قول أحد شعرائهم :

يا واقفاً عند أبواب السلاطين ارفق بنفسك من هم وتحزين
إن كنت تطلب عزاً لا فناء له فلا تقف عند أبواب السلاطين

يرجع تاريخ الإسلام فى جنوب السودان إلى عام ٢٢ هجرية وسنة ٦٤٢ ميلادية عندما قام عبد الله بن أبى السرح على رأس عشرين ألف مقاتل ، ومنذ ذلك العهد أخذ الإسلام ينتشر فى هذه البلاد وتقوى الدعوة إليه إلى أن تم الفتح العربى للنوبة السفلى سنة ١٣١٨ وللنوبة العليا سنة ١٥٠٥ وعم الإسلام وأصبح دين الغالبية الساحقة من سكان هذه البلاد .

وقد أثرت العقائد الإسلامية فى الشيخ حسن الزهراء والشيخ الغرير والشيخ أبى القاسم أحمد الهاشم والشيخ البنا الـكبير فقد كانت معظم قصائدهم فى المدائح النبوية وكان معظم شعرهم فى ذكر شمائل الرسول وتاريخ غزواته وانتصاراته .

هذا شىء عن التصوف فى الشعر السودانى ومنه نستطيع أن نبين أن هذا التصوف كان تارة يجرى على منهج الصوفى بأدق معانى هذه الـكلمة ، وتارة كان زهداً وورعاً وتقى ينتشر فى شعر الأدباء وله طابع عذب جميل يحرك المشاعر ويصل إلى أغوار القلوب .

—*—

من خفقات الشعر السوداني في ذكرى العدوان الثلاثي

فى يوم الاثنين ٢٩ من أكتوبر عام ١٩٥٦ توغلت قوات العدوان فى الأراضى المصرية وعلى مقربة من قناة السويس بمسافة تبلغ نحو مائة ميل ، وفى يوم الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر عام ١٩٥٦ سلمت الحكومتان البريطانية والفرنسية إنذاراً مدته اثنتا عشرة ساعة إلى إسرائيل ومصر ومعروف أن هذا كان باتفاق سابق مع إسرائيل — لوقف جميع الأعمال شبه الحربية فى البر والبحر والجو وسحب جميع القوات الحربية المصرية إلى مسافة تبعد عشرة أميال عن قناة السويس وقبول احتلال قوات بريطانية وفرنسية لمراكز رئيسية فى بور سعيد والاسماعيلية والسويس .

وتلا هذا الانذار الهجوم المسلح على مصر ، الذى اشتركت فيه قوات المظلات ومدافع الأسطول والأسلحة الثقيلة والطائرات النفاثة وما يزيد على مائة ألف جندى من مختلف أسلحة الجيش الفرنسى والبريطانى .

وقامت الحملة بهجوم شديد غادر على بور سعيد بالطائرات ومدافع الأسطول وجنود المظلات ، إلا أن الشعب البورسعيدى الباسل وقف فى وجه الاعتداء الوحشى فى عزيمة وثبات وظل يقاوم الغزاة مقاومة عنيفة متواصلة .

ولم يمض الأسبوع الأول من نوفمبر حتى أعلن وقف إطلاق النار ، وانسحبت قوات الغدر إزاء استنكار الرأى العام العالمى كله وتلبية لرغبة الأمم المتحدة فى نشر السلام وفراراً من الهجوم العنيف الذى شنه أبناء البلاد . انسحبت قوات العدو إزاء هذا كله تجر أذيال الخيبة والفشل على حين تحقق النصر لمصر بمشيئة الله تعالى .

وقد ألهبت هذه المعركة مشاعر الأدباء والشعراء والفنانين فجادت قرائحهم بالعذب من الشعر والجميل من النشيد والرائع من البيان .

واشترك الشعراء السودانيون فى التعبير عن مشاعر أبناء البلاد ، ونظم بعضهم قصائد جيدة من عيون الشعر العربى .

ولعل قصيدة الشاعر السودانى « ادريس محمد » تصور مشاعر أبناء السودان تصويرا صادقا واضحا ، وهو يقول فى مطلعها :

بى ما بصدرك يا مصرى من لهب وشيجة الحق والتاريخ والنسب
عم البلاد ذهول لا تحدده حدود أرض ومشبوب من الغضب
هذا الدم الثائر المهتاج نبعثه نارا ونحرق فيه كل مغتصب

ومضى فى قصيدته يصور تلك الأحلام التى تراءت للغزاة وكيف داسوا قداسة الحق تحت أقدامهم فسالت دماؤهم على الأرض ، وسارعت الأمم الحرة لنصرة البلاد لما بينها وبين مصر من صلات ومن استنكار للظلم واستعباد للشعوب .

ومضى الشاعر السودانى « ادريس محمد » يصور ما يربط الجمهورية العربية المتحدة بالسودان وغيره من الأقطار العربية فقال :

نازلت يامصر من راموك واعتسفوا ونحن بين شديد السخط والعجب
كل العروبة لما مس إخوتهم بأس الغير سعوا فى نخوة العرب
عروبة وحدة الإحساس تجمعها كما التقت فى اتحاد الأصل والحسب
ونحن يا مصر شعب من خلائقه بغض التجنى ورثناه أبا لأب
وكم يد لك فى ماضى الكفاح بنت لنا الحياة فما ننساك فى كرب

ولما انتهى الشاعر من تصوير منزلة هذه الرابطة القوية التى تجمع بين العرب وتدفعهم إلى التكاتف عند الملمات والخطوب ، صور بطولة بور سعيد فهى أنشودة مليئة بالبطولة والحماسة والتضحية .

وفى أسلوب متدفق يفيض قوة مضى الشاعر السودانى إدريس محمد يقول :

وبور سعيد نشيد ملء صفحته بطولة وحماس دافق عربى
وكل ساكنها آساد معركة وطفلها فى الوغى ينقض كالشهب

ما راعها زاحف يصلى شوارعها ولا الردى هابطاً من مربض السحب
ولا البوارج فوق البحر تقذفها والنار تنصب عن بعد وعن كثب
ولا حياض دم المستشهدين بها وما تبدى من الأطلال والقطب
ما راعها بل أثار النار فى دمها فأوردت ظالميها شر منقلب

وهكذا كانت قصيدة الشاعر إدريس محمد صورة صادقة للمودة شاهدة على إخلاص أبناء السودان الشقيق للقطر الشقيق مصر ، وعلى مدى تغلغل روح القومية العربية فى النفوس . القومية العربية التى هى دماء تمتزج بالدماء ، وهى أنفاس تختلط بالأنفاس وهى روح تذوب فى الروح . وهى بعد هذا كله مبدأ ودين لا يتخلى عنه العربى إلى يوم الدين



فهرس

الموضـــوع	الصفحة



هذا الكتاب

يتناول الكتاب طائفة من الدراسات عن طبيعة الادب السودانى وأعلام الشعر في القطر الشقيق ، كما يتناول موقف الشعراء العرب من السودان كاحمدشوقى وحافظ ابراهيم وخليل مطران ، مع فصول عن الاغراض التى عالجها الشعر العربى في السودان توثيقا للروابط بين الشعبين العريقين .

نبذة عن المؤلف

تخرج في كلية الاداب بجامعة القاهرة وحصل على درجة الليسانس والماجستيراه في الادب المعاصر والماجستيراه في التحريروالترجمة والصحافة ودرجة الدكتوراه بمرتبة الشرف . وقد نشر لهأكثر من ثلاثين كتابا في الادب والاجتماع والعلوم السياسية .

الدار القومية للطباعة والنشر
١١ شارع الصحافة بالقاهرة

الثمن ٢٠ قرشا